نسيم ضاهر

الإخوة الأعداء

ظاهرة العنف في الأحزاب والحركات



الفارابي



الإخوة الأعداء
ظاهرة العنف في الأحزاب والحركات

نسيم ضاهر

الإخوة الأعداء
ظاهرة العنف في الأحزاب والحركات

دار الفارابي

الكتاب: الإخوة الأعداء
ظاهرة العنف في الأحزاب والحركات
المؤلف: نسيم ضاهر
الغلاف: فارس غصوب

الناشر: دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان
ت: 301461(01) ـ فاكس: 307775(01)
ص.ب: 11/3181 ـــ الرمز البريدي: 2130 1107
e-mail: info@dar-alfarabi.comwww.dar-alfarabi.com
الطبعة الأولى 2012
ISBN: 978-9953-71-753-1

حيثما حلت الجماعات، برز التزاحم على المناصب، وأدى في غابر زمان، ولغاية العصر الحديث إلى تصفيات جسدية وجرائم مكتومة تكشفت مع تبدل الأحوال.

فعلى سبيل التعداد، لا الحصر، يؤرخ للتصفيات التي رافقت تمدد المغول والتتار واندفاعهم نحو الغرب، ولنزاعات أهل البيت مع الأمويين، ومن ثم العباسيين، والمقتلة التي نزلت بالمماليك، وما أضحى تقليدا طوال قرون من تصفيات داخل أسرة بني عثمان.

كذلك أعطت بريطانيا نموذجا عن قسوة أهل الحكم في ما بين بطون النورمانديين، وتجسدت إبادة طبقة النبلاء أوروبيا في معركة كريسي (1346)، لتتبعها، بفاصل قرنين، الحروب الدينية على مدى قرن، بلوغا لمعاهدة وستفاليا عام 1648.
وكانت الإمبراطورية الرومانية، بجناحيها الشرقي والغربي، مسرحا دائما للعبة الدسائس والموت وتوسل العنف في أعلى المراتب والهرم، وباتت إنجازاتها الحضارية تنوء بمشاهد المؤامرات وما عرف بثورات القصور، تلتهم نار العداوات أبناءها، وتضعف قدرتها على الصمود.
وقريبا منا، مع بدايات العصر الحديث، افتتحت الثورة الفرنسية فصلا دمويا جديدا في التاريخ، وأورثتنا الخوف من المقصلة، بمحموله المادي والجسدي، الإيحائي (الرمزي) المرادف للتنكيل السياسي في الحقبة الحاضرة. لئن أعطت

الحرب الأهلية في الولايات المتحدة، منتصف القرن التاسع عشر ، دفعا للمساواة، فقد سطرت مجازر حقيقية بين الاتحاديين والكونفدراليين، وتركت ندوبا قائمة وماثلة في الوجدان. غير أن روسيا، الخارجة من حكم قيصري استبدادي مديد، تفوقت بدورها على سابقاتها، إذ قادها البلاشفة وتخلصوا تباعا من المناشفة والاشتراكيين الثوريين، ليدخلها ستالين في دائرة الشك من الرفاق المقربين، ويلبسهم تهمة خيانة الشعب والدولة، ومختصر الطريق نحو الغولاغ وثلة الإعدام.

نسوق هذه المحطات مثابة مدخل إلى توكيد الحرفية البشرية في هذا المضمار، ودرءا لإلصاق العنف الأخوي بثقافة أو حضارة أو نظام سياسي على وجه حصري. إن نزعة التخلص من ذوي القربى، أتحدروا سلاليا وعائليا أم اتحدوا في الإيمان أو المقاصد الدنيوية، استمرت تؤول إلى

تغييب جسدي عبر التاريخ، وتأصلت في فضاءات بعينها، مخاصمة معايير الحداثة وأدواتها، فيما سارت المجتمعات الديمقراطية المعاصرة نحو مزيد من التسامح في فض النزاعات والاستهداف، واكتفت بإنفاذ الموت السياسي بديلا من إراقة الدماء.

وما من شك أن زوال العنف الذي غدا سمة عامة في الحقل السياسي حيثما توافرت قواعد الاختيار الحر والرقابة الشعبية المعطوفة على عامل تقريري أساس ، مكسب حضاري سار قدما مع الرشد المجتمعي وشيوع ثقافة سمحة، عنوانهما المشترك القبول بالآخر، على أن يكون الاحتكام الدوري إلى صندوق الاقتراع الفيصل، مفتاح تداول السلطة وضمان ثبات المؤسسات. جاء ذلك حصيلة مخاض طويل اغتنى بتجارب رائدة خرجت من رحم التنوير،

لافظة الأوتوقراطية والفكر الكنسي الجامد، تراكم التجديد
والتجاوز الدائم وتتلاقح لبلورة المزيد من الشفافية
والعقلانية في السلوكيات. وحيث تفشت عدوى الفاشية
خلال حقبة الردة ، بانت نقيض الخط البياني الصاعد،
وانكسرت شوكة أنظمتها التوسعية في حرب طاحنة أرادتها
صناعة لتاريخ جديد يحمل بصماتها، انهار إلى غير رجعة.
كان ذلك نذير تحولات كبرى سوف يشهدها العالم في زمن
الحرب الباردة، جرفت بدورها الشمولية بحلتها الاشتراكية،
وغلبت حرية الفرد ومفهوم التنوع في الاختلاف، مرجعا
ومنهجا، على وحدة العقيدة السياسية وزعامة الحزب
الطليعي المنوطة بها شرطا قيادة الأمة، ثمنها إقصاء الآخرين.

***

بعد مسألة القوميات في القرن التاسع عشر، التي طبعت المشهد الأوروبي بخاصة، وشغلت الإمبراطوريات المترامية الأطراف قاريا وفي البلدان النامية والمحميات، أذنت حرب عالمية أولى بولادة منظومات أحرزت تبدلا جذريا في المعادلات، منها الاشتراكية مطلعها ثورة أوكتوبر في روسيا القيصرية، ومنها الفاشية بتلاوينها النازية والعصبوية ومشتقاتها. ولئن سقط المحور الفاشي في غضون عقدين، زالت نزعته المدانة في الجوهر والتعبيرات، باستثناء قلة من المقلدين، الجالسين على هامش الصيرورة التاريخية، العنصريين المفتونين بمبدأ القوة والزعيم الأوحد. على ضفة الاشتراكية، الواعدة بإنهاء الاستغلال الطبقي، وإحلال المساواة، بدا الأمر مختلفا من جذوره ومبتغاه، وهيأ لكتلة دولية وازنة شقت طريقها بعيد الحرب العالمية

الثانية. يستدل من مجرى الأحداث في ذروة الحرب الباردة بين المعسكرين الرأسمالي والاشتراكي، أن الأخير اندثر في حدود الضم والفرز حول المركز المسكوبي، سواء في جمهوريات آسيا السوفياتية، أم في دول أوروبا الشرقية التي ترعرعت في كنف الجيش الأحمر وعدلت نظامها السياسي تبعا لنصيب الاتحاد السوفياتي من تركة ما بعد الحرب. كما يستخلص بقاء الدول المنبثقة عن ثورات شعبية في شرق آسيا وكوبا على لونها الخاص، وانعطافة الصين وفيتنام تباعا نحو اقتصاد العولمة الرأسمالي بجرعات انفتاح متفاوتة، فيما غرقت كوريا الشمالية في الانغلاق والعزلة، ووقفت كوبا معاندة بانتظار فك الاشتباك مع جارتها الأميركية العملاقة.
من منتصف أربعينات القرن العشرين،

لاحت بواكير تصفية الاستعمار في شبه القارة الهندية بدءا،
ثم كرت السبحة بالعشرات. مذ ذاك، دخلت هذه المجموعة
المسرح الدولي، عاملة، من حيث المبدأ، على اللحاق بالركب
وترجمة التحرر الوطني وثاما يمحو آثار التبعية والتفرقة
كونها مخلفات عهد بائد ووصمة عار. في الحساب البسيط،
أقلعت دول معدودة في هذا الاتجاه، وراوح العديد مكانه
في البدء، عازيا الجمود والبؤس إلى الطوق الإمبريالي.
من هذا المنطلق، تعاقب عالمثالثيون، عسكرتاريا ونخب
حركات انسلخت عن المتروبولات ونادت باختصار الطريق
المؤدي إلى التغيير الشامل، وما هي إلا سنوات، حتى دارت
النزاعات بين أبناء الثورات، أشقاء الأمس القريب ومتعهدي
التصحيح، على خلفية القبلية والتعصب الإثني والصراع على
السلطة بأشكاله

كافة وشعارات الخلاص. خنقت الديمقراطية في المهد واقعا، وأسفرت دعوات التمايز حيال المستعمر القديم ومعاييره، عن اتجاهات استبدادية فردية شخصنت السلطة وأنزلت العقاب بالمناوئين والمعارضين. في المحصلة، ليس من المبالغة القول إن غالب الدول، المسماة نامية، قطع السبيل إلى النمو المطرد، وأفرغ الوعاء المجتمعي من خواصه، بذريعة زيف الديمقراطية المستوردة واجتراح البديل من خصائص وطنية تقوم على الأصالة وتحاكي المناخ الثقافي النابع من وجدان الأمة وقيمها الأبدية بأساليب مبتكرة بزت المعروف من اضطهاد سياسي.

جمع صراع الإخوة الأعداء في الجمهوريات الحديثة العهد ما لم تشهده الملكيات المحافظة من انقلابات دموية وتصفيات داخل الحيز الوطني، وعبورا إلى الاقتصاص من المنافسين

المحتملين بعيدا من الحدود. لهذه الغاية، طاولت يد السلطة
لاجئين مقيمين في الخارج وهاربين من وطنهم الأم، بعد رصد
تحركاتهم، وجندت أجهزتها الأمنية عملاء نفذوا المهمة
الموكولة إليهم بمهارة وازدراء لقوانين الدول المضيفة.
يصح في عملياتهم وصف الإرهاب المخطط له والمرعي من
دوائر نافذة، والمؤيد سرا من بعثات ديبلوماسية تحظى
بالحصانة وتتنكر للمواثيق والأعراف. وفي جنات القادة
الملهمين، من لم يوفق بزنزانة في السجن الكبير، لحقت به
لعنة الاغتيالات عمدا أو حادثا عرضيا يرد في سجل اليوميات.

***

في الذاكرة الجمعية وبلسان العرب، ليس

أجمل من الثورات المجيدة، ولا أقدر منها على إعلاء شأن المواطن وإحلال التآخي والمساواة. لقد أدمج، في هذا الباب، خليط من الأعمال المسلحة والفورات والانتفاضات والانقلابات، بهيج المحتوى والمراد، نقي من الشوائب، سامي الدوافع وحصين القيادة المنزهة عن الأخطاء. يحفل المنقول، رواية وتدوينا، بكم من البطولات والانتصارات، ملحمي البنية، وردي الصورة، يحشوه خذلان الأجنبي الطامع وغلبة الخير على الشر في معادلة بسيطة طرفاها ملائكة مقابل شياطين.

بدءا، يلفت المنقب، في وجه عام، ذلك الحيز المفرد للثورة العربية الكبرى، باعتبارها طليعة التحرر الشامل في خضم الحرب العالمية الأولى. فباستثناء جبل لبنان، لم يعرف عن المشرق العربي إشغال السلطنة العثمانية بنزعة

استقلالية صريحة، وان محدودة، واتخذت الحركات المحلية لونا من منازعة الولاة والتمرد على تعسفهم تحت خيمة الراعي الأكبر، خليفة المسلمين. وغالبا ما رافقت الخروج على طاعة الباشوات مناشدة الآستانة حفاظا على المصالح العليا، و توكيد الخضوع للإرادة السنية، خشية الظن بالأعيان المناوئين لعمال السلطنة، وإلصاق تهمة الإنسلاخ عن المركز بهم. في هذا المجال، يجدر التوقف عند مقاربة مسألة حاكمية مصر من أسرة محمد علي، حسب الأدبيات المعروفة، والحذر البادي من الدعوة إلى استقلال مصر عن السلطنة آنذاك، والذي انسحب على حملة إبراهيم باشا، وتهديده الإمبراطورية. حتى إن مقاومة الأمير عبد القادر الجزائري للاحتلال الفرنسي، إنما صورت في إطار التصدي للأجنبي، العامل على تقطيع أوصال دولة

الخلافة والنيل من دار السلام، عوض تظهير طابعها الوطني الخاص بالجزائر ككيان يصبو إلى الانعتاق من كل وصاية واستتباع (*) ويمكن الزعم بصدقية ونزاهة أن فكرة الفكاك عن الحاضنة العثمانية لم تراود أهل الأقطار العربية الخاضعة للحكم التركي، إلا على مشارف الحرب العالمية الأولى، إثر جنوح عصبة تركيا الفتاة نحو الطورانية والتتريك القسري، ومسها بموقع السلطان ومكانته. أي إن الوعي القومي العربي استيقظ بعد حوالي أربعة قرون من التمدد

* انتسب عبد القادر إلى الطريقة الدرقاوية الصوفية . المعلوم أن السلطنة العثمانية كانت تتوجس من الطرق في المغرب بمعارضتها الخيبة . سوف يتصالح عبد القادر مع فرنسا ، ولربما وعد بامارة على بلاد الشام . كما انتمى إلى المحفل الماسوني لاحقا ، وكان موقفه مشرفا في حماية المسيحيين إبان أحداث 1860.

العثماني، وجاء متأخرا في مقياس عصر القوميات. لذلك، ثمة مبالغة رومانسية حيال الدعوة النهضوية التي أطلقها طليعيون، مسيحيون في معظمهم من بلاد الشام، وأثرها المباشر بين النخب الإدارية والعسكرية التي انتظمت في جمعيات وارتبطت بوشائج خلال قيامها بوظائف رسمية بتكليف من الباب العالي أو بخدمة ضمن وحدات الجيش النظامي العثماني. الحال، كما يشير سير الأحداث، أنها التحقت بحركة الشريف حسين ولبت النداء قبيل انهيار السلطنة، بعدما بان ضعفها العسكري وتراجعت جيوشها على الجبهات كافة تحت ضغط الحلفاء. يضاف إلى ما تقدم انبعاث الثورة الشريفية بمؤازرة المكتب العربي(البريطاني) في القاهرة، خلاصة إعداد دؤوب قام به رحالة، وترتيبات أشرف عليها ضباط مستشرقون بعناية جهاز المخابرات

البريطاني العامل في المنطقة. ولا يستهان، في تهيئة المناخات، بالدور الذي لعبته الإرساليات الأجنبية على مدار نصف قرن، وحفزت خلاله معطى المواطنة، والعروبة، وأكملت سياق التحديث البطيء الناجم عن التنظيمات، والنابع من الشروط المفروضة على السلطنة في الداخل، التي زاوجت بين حاجات الإصلاح وطبعة منقحة من نظام الامتيازات. بعد ذلك، يستفاد من قراءة التاريخ بالمنظار العربي، إنكار للوقائع وتضخيم للمجريات كأنما اتفاقية سايكس-بيكو سوغت لاجتهاد ملحمي استقر على إجهاضها ثورة شاملة كاملة الأوصاف وتقويض مفاعيلها، وبالتالي حرمانها المشرق العربي نعمة التوحد والمنعة. في الموازاة، بخس الفكر القومي الحقبة الدستورية الوليدة في الكيانات السياسية التي أنجبها تشظي الممتلكات السلطانية، واعتبرها، بعد هزيمة

الجيوش العربية وفشلها من إنقاذ فلسطين، عاهة حطت من قدر شعب ممزق وشلت فاعليته، إذ أودعت مصائره نظم قطرية متخاذلة تلهت باقتسام الغنائم وبمسايرة المستعمر، ومنعته من تحقيق إرادته وتوقه إلى الوحدة المفقودة، ضمان وجوده، ومحرك صعوده نحو القمة ومكانته بين الأمم.

لقد جرى استثمار مشاركة قبلية محدودة بحكم الاعتبار المعنوي لشريف مكة، في المجهود الحربي العام إبان النزاع الدولي مطلع القرن العشرين، دلالة على نضوج وعي عربي شامل بصبغة تحررية وحدوية ضاربة في التاريخ. تماما كما جعل من غرق المركب العثماني في مرحلة الشيخوخة إيذانا بانبلاج فجر جديد، الأمر الصائب نسبيا من زاوية زوال الاستبداد كبؤرة تخلف جامعة، والمغالي في نسبة التحولات إلى

يقظة عربية تلتها وثبة أسطورية اصطدمت بمشروع استعماري متربص بالبلاد والعباد، إتكأ على تبعية الحكام الجدد له، وخالف منطق التاريخ في حينه. فما من ذم بانتفاضة الشريفيين وانتقاص من إسهامات أولئك الذين غادروا موقعهم في تشكيلات بني عثمان واستشرفوا أعراضها وموتها البطيء باكرا، إذا استعيد شريط الأحداث وأنزل نصابه، بالتخلي عن المنمقـات والمساحيق، وصولا إلى الاعتراف بحقيقة ما جرى وبيان أوزان وأحجام الفرقاء جميعا. وبالتالي، يصح إكبار الرواد وأصحاب المروءة عند التضحية والصعاب؛ كذلك يسجل التفاف واحتضان للمسيرة الفيصلية في بلاد الشام، ومن ثم ما بين النهرين، على خلفية الالتباس في شأن سايكس-بيكو، والرفض القاطع لوعد بلفور. غير أن الثورة العربية الكبرى لم تكن صناعة عربية في المطلق،

بل إنها افتقدت عناصر أساسية بالتعريف، وانتقلت رسالتها
كانتفاضة مدعومة بريطانيا من الحجاز إلى عرب الشمال في
فترة مفصلية وجيزة، وفي مناخ مؤات، فكانت حدودها
مرسومة من الظافرين تبعا لهندسة مسبقة آلت إلى تجاذب
بين الحلفاء وتغييرات طاولت مناطق النفوذ وخريطة
الانتداب.
انتهى فصل النزاع العثماني الأخير بزوال هيمنة السلطنة
المفككة وبسط النفوذ الانكلو-فرنسي على الشرق الأدنى،
تتمة للإمساك بأفريقيا الشمالية من مصر إلى أقاصي المغرب.
سوف يسير كل بلد وفق نمط مختلف جراء الترسيمة
الاستعمارية، وتتعدد القيود الشادة إلى المتروبولات بين
حماية وانتداب بحراسة قوات مرابطة، أو ضم كمقاطعة كما
في حال الجزائر الفرنسية، أو مستعمرة كعدن، وليبيا بعد
حملة

إيطاليا (1912) عشية النزاع الكوني في لعبة الشطرنج المتوسطي. تماهى المشرق، من الخليج إلى المتوسط مع شمالي أفريقيا، بالخضوع لمشيئة الوصاية الأوروبية، وانفردت الجزيرة العربية بطعم الاستقلال تحت حكم آل سعود(مع اليمن القروسطي الخالي من نعمة البترول)، حيث ما لبث الملك عبد العزيز، قاهر الهاشميين، إن تخلص من عبء الإخوان، أعوان الأمس وسيوفه المشرعة، بقوة السلاح. هكذا، غدا المقيمون المعتمدون والمفوضون السامون أصحاب الأمر والنهي، وانتشرت القواعد العسكرية والبحرية تملأ الأمصار وتضبط السياسة المحلية على إيقاع الإستراتيجيات.

في المبنى التاريخي، لم يخلف اندثار الإمبراطورية العثمانية نشوء كيانات عربية مستقلة نظير دول الروملي في المقلب الأوروبي. لا تلام

النخب العربية في ذلك، ولا ينسب لها منصف تهاونا وسوء
إدراك. فالذي تحقق، إنما تضافرت عليه عوامل قاهرة، ألقت
بثقلها أفريقيا ومغاربيا منذ القرن التاسع عشر، عازلة
المتوسط الجنوبي عن مدار السلطنة، في حين رسخت بريطانيا
العظمى سلطتها الفعلية على مشيخات الخليج وضفتي
مضيق هرمز مع سيطرتها على البحار. وعندما انضمت
إسطنبول إلى المحور الجرماني وغامرت بتجريد حملة للوصول
إلى ترعة السويس مع تعزيز حامياتها على خط الحجاز بغية
الإبقاء على ممتلكاتها العربية، تصدت لها جيوش بريطانيا
المتعددة الجنسيات، فيما اكتنف الغموض مراسلات
مكماهون مع الشريف حسين، فجاء العهد المقطوع له
منقوصا تعوزه الدقة ويحيط بمندرجاته إبهام مقصود لا يشي
بما احتسبه الجانب العربي واشتهاه من انبعاث أحادية

دولتية وشمولية قومية وتحرير مصير على كامل الأرض
المنتزعة من النير العثماني. إن ما اعترى البدايات عائد لواقع
الضعف العربي والإنهاك الذي حل بالمنطقة جراء الاستنزاف
التركي. وفي ما بعد، لما بات على العرب استخلاص النتائج،
داهمتهم الوقائع، ودفعتهم المرارة إلى اختصار العلة بمكر
الإنكليز وخداعهم.
على الرغم من هذه المحددات والمعوقات، تسنى للدول
العربية الناشئة اختبار نموذج حقوقي دستوري في إدارة
الشأن العام، يعتبر تمثيليا هجينا بعيدا من الكمال
الديمقراطي والشفافية، تشاركت في ظلاله شرائح إقطاعية
وعشائرية وبورجوازية مدينية.
حظيت مصر، المتحولة من الخديوية إلى الملكية، بالريادة في
بلورة صيغة الأحزاب لتلاشي علاقتها العضوية بإسطنبول منذ
عقود

استبقت هزيمة بني عثمان، فقارعت باكرا الاحتلال البريطاني
لوادي النيل. في المشهد العام، صادرت الدوائر
الأنكلو/فرنسية نصاب السلطة العليا، وأمسكت بالقرار
السيادي، لكنها، في المقابل، أشرفت على بناء هياكل إدارية
بطابع حداثي ومؤسسات قضائية مدنية تتحلى بالنزاهة
وتحث على احترام مبدأ القانون. كانت تلك التنظيمات
بواكير واعدة، إيجابية المرمى والحصيلة، مغايرة للمتبع
التقليدي المتقادم، اعتبارها محمول الخدمة العامة، لا
الادعاء التمديني الذي ألصقه بها غلاة التفوق الغربي،
المتشاوفين على أهل البلاد.
بيد أن نقلة نوعية بارزة وسمت أيضا المجال السياسي،
قوامها القطع مع ممارسات دهرية دأب عليها الولاة
والمتسلمون زمن الباب العالي، وأتقنها جمال باشا السفاح،
توسلت

العنف الدموي والاقتصاص الجسدي من المخالفين لمجرد الشك في الولاء والابتزاز والمكائد المحاكة. تبعا لهذه الأصول، قام تنافس محدود، محكوم السقف بمرجعية الوصاية، أفضى إلى تشكيلات قابلة للاختراق والتكيف الانتهازي، هيمنت على الساحة السياسية والبرلمانات، وأفرطت في إشاعة الزبائنية رافعة للديمومة واقتناصا للمواقع.
على مصطلح الدقة، ما غابت المقاولة السياسية والنميمة لحظة، سوى أن مفاعيلهما لن تمهد لنهج الاغتيالات وتتجاوب مع منطق الاستبداد البغيض الذي ولى وظن أنه دفن مع عهد بني عثمان.

***

الأصل في مصادر العنف
وتفشي الداء في الأنظمة "التقدمية"

أسقط مصطفى كمال أتاتورك خلافة بني عثمان منهيا مرجعية دينية اعتاد العرب والأعاجم حضورها، ولو الشكلي، عبر ثلاثة عشر قرنا، من أندونيسيا وإقليم شين كيانغ الصيني مرورا بالقفقاز إلى قلب أفريقيا وضفاف الأطلسي، مع جيب أوروبي بلقاني، تركة الفتوحات التركية واستيطان حامياتها في البوسنة وإلبانيا، بلاد البشناق والأرناؤوط. في الحقيقة، قلصت روسيا القيصرية رقعة نفوذ خليفة المسلمين بدءا من

منتصف القرن الثامن عشر، وسيطرت على طريق الحرير في آسيا الوسطى، قبل الإطاحة بخانات التتار، سند السلطنة، تشدهم إليها رابطة الدين. والمحصلة خضوع القوس الآسيوي وراء جبال الأورال للتاج الروسي في محاذاة التاج البريطاني القابض على جنوب آسيا لغاية الهند الصينية. سيكون لهذه المعطيات التاريخية مجتمعة أثر بالغ لاحقا على بروز الحركات الإسلامية الجهادية واتصال دعوتها بمرحلتين متعاقبتين، تصفية الاستعمار (البريطاني/الفرنسي تحديدا بكافة أشكاله) أولا، وتمزق الاتحاد السوفياتي ثانيا على مشارف الألفية الثالثة.

من مصر التي افتقدت زعيمها سعد زغلول، خرج حسن البنا بجمعية الإخوان المسلمين على هامش الحركة الدستورية الباحثة في مختصر السيادة بين القصر والإنكليز وسط تأييد شعبي

أضعفته المساومة والعثرات. قبل ذلك، ومن دار السلطنة العثمانية المتهاوية، طرح الأفغاني صيغة الجامعة الإسلامية علاجا لاستعادة العافية، استلهم محمد عبده ورشيد رضا بعض مركباته. زرعت بذور استنهاض أمة المسلمين، فيما انشغل الجناح المدني المتمثل بنخب الحركات الوطنية في كيفية انتزاع استقلال كل بلد على حدة ضمن إطار كياني سياسي ذي هوية وشرعية مصدرها الشعب. كذلك أذعنت أسرة القاجار، حاكمة بلاد فارس، لإصلاح محدود انتهى بمشروطة (دستور) أعطت طهران بموجبه مجتهدي الشيعة حق الرقابة على الشأن العام عام 1906، بناء على تقليد فقهي رافض للإمساك بالسلطة الزمنية في غياب المهدي. بعد عقدين، عزل آخر القاجاريين، لكن الجنرال رضا البهلوي القادم إلى السلطة على

أنقاض دولة قروسطية البنى سوف يتمثل بأتاتورك، ويسلخ عن رجال الدين صلاحية القضاء والتعليم. وقريبا من فارس التي غدت إيران، نادى أبو الأعلى المودودي، الهندي المنشأ والنسب، بانفصال المسلمين عن الهندوس، توطئة لوحدة الأمة على أساس ديني لا عرقي، لأن الأصل في الانتماء إلى دار الإسلام، وتشدد في مبدأي الحاكمية والجاهلية، يجاريه أبو الحسن الندوي، ناشرا كتابه المرجعي "ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين" (1944).

أخذت الدعوات الإحيائية تحاكي الذاكرة، مثالها عهد ذهبي مضى، في انتظار توافر شروط القيامة، المفقودة آنذاك. وحيث أخمدت الحرب العالمية الثانية الحراك الموضعي، فقد تلتها أحداث جسام ثلاثة بالتتابع وبفاصل سنوات، بدلت اللوحة العامة، وهزت المشاعر من

الأعماق. قامت باكستان بقيادة محمد علي جناح دولة على
دين الإسلام، مكسورة الجناح في جامو وكشمير، وسقط
معظم فلسطين بأيدي الصهاينة على مذهب اليهود، ثم
انطلقت الثورة الجزائرية عام 1954 باسم من عرفهم
المستوطنون بالمسلمين لا بالجزائريين. مذذاك ربطت نزاعات
عديدة تمحورت حول الهوية جراء مظالم الغرب الاستعماري،
ثأرية الشحنة، سرعان ما ارتابت من الولايات المتحدة
وناصبتها العداء بوصفها قاطرة استعمار جديد، وأجازت
انتهاز المدد والدعم من القطب الآخر، السوفياتي، على سبيل
إباحة الضرورات للمحظورات، واستثمار العداء المشترك
للإمبريالية. فقد نفر دعاة الصحوة الإسلامية بالسليقة من
محمول الشيوعية المادية، المكروه شرعا والملتصق بالأممية،
وانفضت عنهم نسبيا وبخفر الحركة القومية العربية
الصاعدة مع

الناصرية، عمودها الفقري، والمتناسلة فروعا بعثية وعروبية ممركسة ومشتقات. ولئن حظيت الولايات المتحدة بادئا بفترة سماح، رصيد أفكار ويلسون ومواقف روزفلت، انقلب الأمر حيالها، مع مشاريع جون فوستر دالس، ورفض البنك الدولي تمويل مشروع السد العالي بإيعاز من واشنطن. بدوره، كسب الاتحاد السوفياتي ود شعوب الشرق في مرحلة أولى، تميزت بعمق خصامهم مع إمبراطورية لا تغيب الشمس عنها، وإيجابية أتاتورك ورضا شاه تجاه الثورة اللينينية البلشفية التي بادرت أيضا إلى قرع باب آل سعود. ومن منتصف الخمسينات، عمل السوفيات على إزالة رواسب الاعتراف بإسرائيل، بعد أن انتصروا للناصرية وحركة التحرر العربية، وأغدقوا المساعدات على الأنظمة التقدمية المناوئة للدولة العبرية وللأحلاف.

امتصت الحقبة الدستورية منسوب التطرف

الديني، كما استوعبت معانقة أوساط ناقمة على الإنكليز (والفرنسيين) للنازية عشية الحرب، والرهان على الماريشال رومل لدحر مونتغمري وأعوانه في أفريقيا الصحراوية. كانت حركة رشيد عالي الكيلاني ورفاقه الضباط في العراق أبرز مظاهر التمرد، وتم إخمادها بالقوة، فيما رفض المفتي أمين الحسيني الكتاب الأبيض واستمر على مغازلة ألمانيا النازية رمزا للإسلام الجهادي الرسمي بعد فشل ثورة 1936 ومقتل ركنها الشيخ عز الدين القسام.

بعيد حرب ضروس حطت أوزارها عام 1945، ذبل التعاطف مع المهزومين، ولاحت بوادر الاغتيال السياسي كأسلوب بائس لجأ إليه الإخوان المسلمون، فاتحة توسل العنف سبيلا إلى تغيير المعادلة القائمة، بينما انفجر الصراع

المهووس في الهند، مخلفا عشرات آلاف القتلى، تبارى من خلاله غلاة المسلمين والهندوس تحت راية الدين. في الفضاء العربي، جاءت عناقيد الغضب مغايرة، إثر ضياع فلسطين على يد الهيئة العربية العليا بقيادة مفتي الديار، وفشل الجيوش العربية مجتمعة في إنقاذ الوطن السليب، إذ أنجبت السخط على المتخاذلين (والمتآمرين)، وهيأت لنمط قادر على غسل عار الهزيمة، قوامه منظومة تتكىء على الرافعة القومية وتطيح بأنظمة الهزيمة، وأداته من صلب المتطلعين إلى الوحدة ونبذ التبعية، حاملي الفكر الثوري التحرري في خلايا حزبية وعسكرية سرية تؤمن بالعروة الوثقى. وعلى وجه المقارنة، يمكن إيجاد رابط مسلكي بين هؤلاء القادمين إلى واجهة الأحداث وأولئك الذين انبروا من قبلهم،

عسكريين ومدنيين، في منظمة العهد والجمعيات السرية،
للدفاع عن الشرف العربي، وحلموا بدولة جامعة تعيد
الأمجاد.
وعد بأحرف عربية ترك العباءة الدينية للمناسبات، وثأر
نودي به، وقف عند عتبات إسرائيل من كل صوب.
تدحرجت تيجان وهوت عروش ورئاسات على رجاء قفزة
نوعية، وختمت عقدين هزيمة مدوية جديدة غابت عنها
دسائس السفارات، وحفظ ماء الوجه فيها الفيلق العربي
المعاد تسميته جيشا أردنيا مواليا للعاهل المستضعف. ثم
تبدلت الأحوال، وكفلت المقاومة الفلسطينية المراد الشعبي
إلى حين غياب عبد الناصر وجلائها عن الأردن غداة أيلول
الأسود، تظن بالأنظمة التقدمية وترفع شعار الحرب الشغبية
بديلا. إلا أن جبهتي مصر وسوريا اشتعلتا عام 1973، خلافا
للمتوقع من القيادة

المصرية المعقودة اللواء لأنور السادات، الرئيس المؤمن العامل على تصفية مواقع النفوذ ذوات الصبغة الناصرية، ومطارد اليسار.

ارتاح الإسلاميون المصريون من ثقل ميراث عبد الناصر، وخالوا أن طلب ودهم قد بان، ليفاجأ الجميع مجددا بالحدود المرسومة لحرب التحرير في سيناء، وبولوج مصر الساداتية عصر الانفتاح، وتجاوبها مع صديق زعيمها، هنري كسينجر، الذي أسفرت رحلاته المكوكية عن هندسة تصالحية مع إسرائيل، آلت إلى زيارة القدس من جانب الطرف المصري وخطاب شهير في الكنيست الإسرائيلي، تبعه اتفاق كامب دايفيد برعاية الرئيس الأميركي الجديد كارتر. هكذا غادرت مصر الصف والإيديولوجيا، وعقدت صلحا منفردا، تبرأت منه دول الجامعة العربية ونقلت أمانتها إلى تونس، علها تعزل المتهاونين.

أضحى السادات فرعون مصر الحديث، تلاحقه لعنة القائلين
بحرب الوجود والشر الإسرائيلي المطلق باسم الغيرة على
الدين، ويعاديه جميع أهل التحدي والصمود على خطى
الثنائي البعثي في كل من دمشق وبغداد. انتهى مفهوم دول
الطوق ومفعول فكي الكماشة المصرية-السورية، لا بخروج
مصر من الساحة وحسب، بل أيضا، باتفاق فصل القوات
المعقود على جبهة الجولان، الذي لن يخرق البتة، ويستعاض
عن التقاعس السوري بمناوشات جانبية تستهدف الجليل
وإصبعه انطلاقا من لبنان. ولم يجد اغتيال السادات المروع
من جماعة الجهاد الإسلامي في إعادة عقارب الساعة إلى
الوراء، سوى أنه أذن بدورة عنف سوف تقود الملاحقين إلى
كنف بن لادن وأرض أفغانستان، وتلجم طموحات الإخوان
المسلمين في الانقضاض على

السلطة، ما ساور إخوان سوريا ورماهم في مغامرة كلفتهم
مجزرة حماه. فعوض سواعد شباب التقوى، بانت أنياب
الأسد وقضي الأمر شلال دم تحت أنظار خالد بن الوليد.
على هذا النحو، اختصرت سوريا البعث بسوريا الأسد خلال
عقد من الزمن، شهد صعود الغريم التكريتي اللدود صدام
حسين من سيادة النائب إلى سيادة الرئيس، القائد الأوحد
على ضفاف دجلة، ذي القبضة الحديدية والباع الطويل.
طوال ربع قرن، اختلط فيه البناء بالتنكيل والحروب الصغرى
والكبرى، كتب على العراق دفع أغلى الأثمان، وسجلت كل
مرحلة في عهدة الفارس تساقط النشامى من حوله، حتى
أفرغ حزب البعث من رفاق الدرب، والتحقت كواكب
المغضوب عليهم تباعا بقوافل المعارضين والمعترضين، فلم
توفر آلة القمع مكانا لهم إلا

تحت التراب، وغالبا ما حرمتهم الشواهد، لمزيد من التشييئ.
هكذا بكى العراق شيوعيين وكردا وشيعة ومعممين، كما ناح
على بعثيين أوفياء وقوميين عرب وعدد لا يحصى من البسطاء
الصابرين.
خبرت الأنظمة التي أطلقت عليها صفة التقدمية عنفا
عضويا فاق المرتكب لدى المحافظين. وكلما تستر انقلابي
بالإصلاح الجذري، انقلب على حقوق الإنسان في أبسط
تعاريفها، وتولى مهمة إقصاء مساويه ومنافسيه المحتملين
ضمن حلقة المشاركين في "الثورة". اكتسب كفاح الجزائريين
وسام الثورة الشعبية بامتياز، لكن القليل رشح عن التقاتل
والتصفيات داخل جبهة التحرير الجزائرية، المجتمعة على
استئصال معاوني ومهادني السلطات الفرنسية. الحال أن أمراء
الوحدات ونظار الولايات قسوا

وحاكموا ميدانيا وأرعبوا المتلكئين من الالتحاق بصفوف الجبهة، وما تورعوا عن إنزال العقاب الجماعي حين اقتضى الأمر. ولعل رهطا من شهداء الثورة إنما سقط بنيران صديقة عمدا. فليس ما أوردته الرواية الرسمية بعد نيل الاستقلال بمطابق لمجريات الساحة خلال الكفاح المسلح، عملا بأساليب الحرب النفسية المضادة، والشك الذي أحاط بالمعتقلين والمستجوبين، خشية تسلل العملاء إلى التشكيلات المقاتلة، واستثمار الفرنسيين التعذيب لانتزاع الاعترافات وإضعاف مناعة المجاهدين بغية استخدامهم كمخبرين. إن مفاد تلك الحقبة الصمت حيال العنف المنهجي، وتدارك إيقاظ الأحقاد الدفينة في جوف المجتمع الجزائري، لكن جنوح الجماعات الجهادية نحو الصدام الدموي إثر إحباط جبهة الخلاص الإسلامية بداية

التسعينات أتى بالدليل على تأصل نزعة العنف، واتصالها بموروث وممارسات لم تكن غريبة أو لم تدن في المطلق من ذي قبل.

على الرغم من مكانة أسرة السنوسي الدينية، ووقوفها على طريقة لها مريدون واعتبار، جرف القذافي ورفاقه الضباط حكمها وآثارها في الفاتح من سبتمبر عام 1969. انقلاب لقن شعب ليبيا أنه ثورة، انتسب إلى الموجة الناصرية، باحثا عن تقليعة أوديبية وجدها في الجماهيرية والكتاب الأخضر، وتحرر من كل قيد بعد وفاة عبد الناصر، فخص العقيد الشاب بالولاية الشاملة على قاصر مدى الحياة. انتدب القذافي نفسه منارة للأمم، بدءا بشعبه المدجن جراء تطهيره من أعداء الثورة المنافقين، فاستوى وحيدا على سدة الأمر والنهي، وبات لا يعرف لليبيا عنوان سواه، وحرم مجرد ذكره من أوته السجون والمنافي،

ومن غاب غيلة عن لوحة الأحياء ودفن حيا في الصحراء .
يتعذر إيجاد مثيل لقائد الجماهيرية (وملك ملوك أفريقيا مؤخرا) عبر التاريخ والجغرافيا، ويستحيل قياس أفعاله بمكاييل العصر، حيث نجمت عن حسابات نرجسية جامحة تؤول إلى إصدار الحكم الخفي بالإعدام نزوة تضاف إلى سابقات. يزيد الأمر إيلاما، أن غالب الأسرة الدولية طلب رضاه لقاء امتياز نفطي أو استثمار مالي، فهو صاحب ليبيا وسيد المكرمات، ما لم توفره موارد اليمن السعيد لقادة جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية إبان الانفصال.
وفي اليمن الجنوبي، أعلن الحزب الاشتراكي اليمني انتقاله إلى الماركسية اللينينية بأجنحته المؤتلفة القادمة من حركة القوميين العرب والمجموعات اليسارية، وهدم، في

لحظة، البيت المشترك على ساكنيه، ليعود إلى قبلية ثأرية
دمرت الوعي المكتسب، وبينت أن الاشتراكية العلمية قشرة
طفت على سطح البناء السياسي. اقتتل الرفاق اليمنيون
بضراوة، أين منها صراع الإخوة، وعالجوا الخلاف السياسي
بالمدفعية، تدك المؤسسات، وتساند الجموع القبلية المسلحة
المنحازة غريزيا إلى هذا الفريق أو ذاك. بذلك طويت صفحة
مجنونة امتزجت فيها البداوة والطليعية على الطراز
السوفياتي، كان للأولى بصمات على منطق التحالفات ومسار
الأحداث، وللثانية أدوات نظرية مقرونة بشبق السلطة
وامتلاك السلاح الحديث.
وفي المحصلة، ركام ودماء سالت في المهاجع وعلى الطرقات،
كأنما استعجال التاريخ عود على بدء، واقتباس من ستالينية
داهمت بيئة اجتماعية متخلفة، قابلة لحسم النزاعات
الفوقية

بالاحتكام إلى التصفيات المتبادلة وامتشاق السلاح.

***

وسط غابة من السلاح ضمنت منظمة التحرير الفلسطينية التمثيل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني على أرضه التاريخية وفي الشتات. ثم لياسر عرفات ما عجز الشقيري عنه بشططه اللفظي المحموم، مستوعبا التفتح الفصائلي تحت خيمة الثورة، وما كان لوحدة الصف، الشكلية غالبا، حظها من المظهرية لولا براعة أبي عمار وثقل فتح. إنما وجه أبو نضال(صبري البنا)، المنشق عن فتح، طعنة بليغة لحاضنة المؤسسة الفلسطينية، إثر أحداث أيلول الأسود في الأردن وانكفاء القيادة إلى لبنان، فاتحة مسلسل دام طال

الإخوة، وتشبه صناعه برسل حسن الصباح من الحشاشين.
لن توقف الإدانة المتكررة أداة القتل هذه، التي تحولت إلى جماعة مرتزقة يجري توظيفها واستخدام خناجرها من أرباب الأنظمة لتصفية الحسابات، والنيل من استقلال القرار الفلسطيني، وفيما أدار أبو عمار بحنكة لعبة النظريات حول فتح، وشجع أيضا تناسل الفصائل، غدا الحكم الأوحد في المنازعات داخل البيت الفلسطيني، غير أنه فشل في القضاء على أبي نضال.
ليس مصادفة تزامن الرحيل الفلسطيني الرسمي عن لبنان مع ولادة حزب الـلـه. فلقد ظن كثيرون أن الوليد خرج من رحم حركة أمل الشيعية بعد غياب المؤسس السيد موسى الصدر. الصائب على ما أفادت به مفكرة السنوات، بينما جاء تأسيس حزب الـلـه برعاية إيرانية مباشرة،

حيث اتخذ من الحرس الثوري عرابا أمسك بيديه وقاد خطاه. بعدئذ تولت أمل حرب المخيمات للإجهاز على حضور منظمة التحرير الفلسطينية في ضاحية بيروت الجنوبية، ما كلف المقاومة الوطنية الكف عن نشاطها ومطاردة مجموعاتها، بناء على إملاء سوري حازم تبرم من استقلالية طابعها المدني، ومن رفض محركها اليساري المشاركة في قهر الفلسطينيين وتطهير بيروت من شوكة في خاصرة مشروع الهيمنة الشامي العائد إلى العاصمة اللبنانية. نالت أمل حصتها في كنف الهندسة "الأخوية"، ودفعت بدورها ثمنا بشريا باهظا لقاء إسناد المقاومة إلى حزب الـلـه منفردا، في صدامات دموية معه شملت معظم الجنوب وأرست، في النتيجة، غلبة الحزب الصاعد كوكيل معتمد للمحور الإيراني-السوري، أنيط به تنفيذ العمليات العسكرية في الشريط الحدودي

المحتل، وتجسيد المقاومة روحا ورسالة ومسمى. مذ ذاك اقتصر دور حركة المحرومين المدجنة(أفواج المقاومة اللبنانية- أمل) على المحاصصة في السلطة، هياكل وأجهزة، وتوفير الغطاء والإسناد لشقيقها الجهادي الموثوق وفق معادلة بينية ذات وجه ثنائي، واكبت التمدد الشيعي جغرافيا والتموضع المذهبي الفاعل بين سائر المكونات في لبنان الساحة وعلى خطوط التماس مع العدو.

خلال العقد الأخير من قرن حافل بالتحولات، إنقلبت التحالفات وانسحب الجيش الأحمر من أفغانستان، تلاه انفراط عقد الاتحاد السوفياتي، واحتلال صدام حسين للكويت، ليطرد منها في حرب الخليج الأولى بتحالف قادته الولايات المتحدة التي رابطت قواتها في المنطقة المتاخمة، وحملت ديبلوماسيتها على عقد

مؤتمر مدريد وإجراء محادثات عربية/إسرائيلية شاملة فشلت في إنهاء النزاع. حينها بدأت أفواج الأفغان العرب بمغادرة أفغانستان بعد انتصار المجاهدين، فيما أطاحت حركة طالبان بالفصائل المتنازعة على السلطة، واستقرت في كابول العاصمة. كما سمح اتفاق أوسلو إثر مفاوضات سرية منفردة بين إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية بدخول ياسر عرفات إلى الضفة والقطاع، وقيام سلطة وطنية محدودة الصلاحيات. في المجمل، فتحت غير قناة اتصال برعاية أميركية، كادت أن تصل إلى خواتيم بين سوريا وإسرائيل، تعثرت في اللحظة الأخيرة، دون إغلاق ملف المفاوضات.

جلست المنطقة على قاب قوسين من حلول ممكنة، لم تنضج، إنما لاحت معالمها في الأفق غير البعيد، تترنح ولا تصل إلى طريق مسدود

بالكامل، إلى أن حل الزلزال.
فقد صحا العالم في السنة الأولى من الألفية الثالثة على غزوة نيويورك (واشنطن) التي أدت إلى محو برجي مركز التجارة العالمي(وتدمير جزئي للبنتاغون)، مخلفة حوالي ثلاثة آلاف قتيل في قلب الولايات المتحدة الأميركية، دون سابق إنذار. افتتح القرن، بعد عقد من انهيار الاتحاد السوفياتي ونهاية الحرب الباردة، بعمل إرهابي مروع نفذته جماعة انتحارية وتبنته منظمة القاعدة بقيادة أسامة بن لادن المتعاون مع طالبان في ملاذ أفغانستان، أثبت ان سقوط الثنائية القطبية، وبالتالي تصدع معادلة الرعب النووي، لم يمنح القوة العظمى مناعة كافية تضع أراضيها في مأمن من الاعتدادات. سوف تؤكد عمليتا احتجاز الرهائن في بيسلان وموسكو آفة الإرهاب،

وتصيب روسيا في الصميم، بخسارة بشرية كبرى ونتيجة كارثية على صعيد إجراءات المواجهة.

أخذت المعمورة علما باستحالة تفادي ضربات الإرهاب المتنقل والمعلوم انطلاقا من بؤر نزاعات مزمنة، استوطنت القوس الممتد من كشمير إلى البحر الأسود، وتابعت تزويد الدول المعنية بالتضييق على نشاطها، عينات مخيفة أوقعت ضحايا بريئة بالآلاف. فكيفما أجريت المقارنة مع سابقات مكائد عرفها التاريخ، تبدى هول الظاهرة المنبعثة مطلع زمن موعود بالمنجزات العلمية، أفرج عن انتحاريين متمرسين بالوسائط الحديثة يستخدمون التقنيات ويربطون الأرض بالسماء. رسل الموت الصاعق تهيأوا وقدموا، تاركين وراءهم الرسالات الصوتية المفعمة بعبارات التقوى ودوافع الجهاد، ولا من

كابح مصدره الناسوت قادر على إيقاف زاهد بحياة فانية
تأبط اللاهوت.
هي السياسة أصل العلة، راكمت مظالم شخص داؤها عصيا
عضالا من جانب سعاة الجنة، ولم يجدوا لها دواء سوى
العنف العشوائي، وان اقتضى العلاج التضحية بالذات،
والركون إلى ماضوية تفرز البشر معشر كفر مصيرهم الهلاك،
وأهل صلاح لهم الرفعة والبقاء. على قاعدة السفسطائيين،
بنيت نظرية قوامها خير مطلق منبته العقيدة على وجه
حصري، يقابله شر مطلق، نصيب الملل المغضوب عليها
والنحل القابعة في الجاهلية، وجاز إعمال السيف في رقاب
حلفاء إبليس. وفي سياق مانوية لفظت الرحمة تمزق جسد
شاه مسعود، أسد بانشير، إربا، إيذانا بمسير أفراد الغزوة
الكبرى إلى قدر محتوم مع ضحاياهم،

كما قوبلت بناظير بوتو بحزمة ناسفة أردت بالعشرات معها، عقابا لنهجها المدني، وتطايرت رؤوس أمراء الجهادية تباعا في الجزائر. ولم تفلح جماعة المحاكم الإسلامية في درء انشقاق حركة الشباب عنها في الصومال، وإلباسها ثوب الخيانة توطئة للحرب الشاملة عليها. أما في غزة، فقد بلغ المشهد السوريالي أوجه بعد طرد فتح من القطاع وتصفية المئات من كوادرها وناشطيها، حيث أمعنت حماس في التصدي للانحراف وجيوبه، وأمطرت جند الإسلام المتحصنين في المسجد بالقذائف والرصاص، فهلك منهم نفر تحت الركام، وانتهى الناجون إلى استسلام مذل.

تسلق الإرهاب جدار العولمة، فإذا بهذا النمط يجتاح الجغرافيا البشرية، ويتحول إلى طارد لمأسسة السلطة يغير على الآمنين بذريعة

إلحاق الهزيمة بالظالم وتطهير الأمة من المذلة. هكذا بات الترويع مدخلا إلى نصرة العقيدة والقيامة في يوم الدين على أرض مخضبة بالدماء، يحتج على مألوف تعاطي القوس السياسي مع مسألة الهوية المؤسطرة، وسبل رفع الظلامة، ويدين انحراف كثرة المتخاذلين من ساكني أرومة السلطة وحملة الأفكار الهدامة، وكل عامل على طي نزاع وإرساء وفاق. إرهاب وليد العنف في أعلى مراحله، حاقد على مدارس السياسية والإدارة والعلوم، منغلق على ذات أبدية محنطة، توسل كل صنوف القتل، وأخذ الأبرياء بجريرة المستهدفين، ووجد ملاذا في كنف نظم الاستبداد وأجهزتها التي أوت صانعيه وضلعت معه في الخفاء، مرجعة إليه الأعمال القذرة والاغتيالات الموصوفة، وهو فخور بوقعها، يعلن مسؤوليته عنها عبر الإنترنت وعلى الشاشات.

ولقد نشأت جراء هذا التوضيب علاقات زنى ملتبسة غير مستقرة، افتقدت عنصر الثقة المتبادلة، وأدت عند الضرورة إلى الإخلال بالتفاهمات السرية والارتداد على شاكلة صفقات سوريا حيال كل من أوجلان وكارلوس والمجاهدين المرسلين لمحاربة الأميركيين في العراق.

تعريف الإخوة الأعداء

حان وقت تعريف الإخوة الأعداء كما لحظه القاموس
المعمول به إقليميا. يعشق العرب بيان نسب الأفراد، ولهذه
الكلمة فعل السحر لديهم إذا جاورها الحسب. كما خصت
لغة الضاد الأقارب بمسميات يفتقدها سائر الألسن مثال
الخال والأخ(غير الشقيق) وسواها. لذا، يعتبر عبد الخالق
محجوب أو فرج الـلـه الحلو وكذلك شهدا عطية الشافعي
إخوة جلاديهم في حركة التحرر الوطني، وإن انتموا إلى
الفصيل الشيوعي، ونالوا جزاءهم على حبل المشنقة أو

إحراقا أو بالأسيد. في الحقيقة، أعطي عبد الخالق محجوب نوعا من التفضيل حيث أمضى النميري الحاكم آنذاك الليل معه عشية الإعدام في الزنزانة، يناقشه أحوال السودان ومبادىء الاشتراكية العلمية، ما لم يشفع بالسجين المشرف على الموت. دفع الشافعي ضريبة تدجين الحركة النقابية في مصر مع صعود جمال عبد الناصر، فاطمأن الجناح الإسلامي داخل حركة الضباط الأحرار إلى إخراس الطبقة العاملة في معقلي كفر الشيخ وكفر الدوار، بينما زج بكبار مثقفي مصر اليساريين في ليمان طرة، بمن فيهم نبيل الهلالي ابن نجيب الهلالي رئيس الوزراء في نهاية العهد الملكي، وأعلام الفلسفة والاقتصاد والنقد الأدبي الذي شكلوا طليعة النخبة العلمية المناوئة للفاشية والاستعمار. أما فرج الـلـه الحلو اللبناني، فقد تربص به جلاوزة المخابرات

الشاميون بإشراف عبد الحميد السراج، صيانة للجمهورية العربية المتحدة وللمد الوحدوي السائر نحو تعقب صانعيه في سوريا بلوغا لانفصال سريع دمر تجربة الوحدة وحطم الأحلام الوردية المعقودة على الأخ الأكبر.
على تخوم حركة التحرر الوطني، يعيد إعدام مؤسس الحزب السوري القومي وزعيمه أنطون سعادة، إلى باكورة منجبات الحلقة الأولى من الانقلابية في سوريا. آمن سعادة بالنهضة القومية وأسس لها حزبا عاملا على مساحة الهلال الخصيب، مجال سوريا الكبرى الحيوي، فاستلهم تعاليم فلاسفة عصر القوميات الجرمان، واستعار من الفاشية مبادىء التنظيم الحديدي. وليس بمفارقة أن يستمر نصير المهزوم ينمو بعد تحطيم ألمانيا النازية وحلفائها، حيث كان الاستقلال عن بريطانيا وفرنسا راية الوطنيين في

المشرق العربي، وقضية وجودية في ذاتها طعنها إفراغ فلسطين
من سكانها الأصليين واغتصاب معظم أراضيها من مهاجرين
يهود أعلنوا دولة إسرائيل كيانا بديلا شرد شعبها المقهور
وطمس هويتها العربية. خدع حسني الزعيم الضابط القابض
حديثا على سوريا سعاده اللبناني داعي وحدة بلاد الشام،
فوضع خاتمة أليمة لانتفاضة الحزب المسلحة (الثورة الأولى
في أدبيات القوميين الاجتماعيين)، بتسليمه موقوفا إلى
السلطات اللبنانية التي نظمت محكمة صورية على عجل
وأعدمت سعاده في اليوم التالي بالرصاص.
من النافل إرجاع مقتل سعاده إلى الثقة التي خص حسني
الزعيم بها، وتوسم خيرا به في المعتقد والميدان. أقدم الزعيم
على خيانة سعاده المستجير به بدافع انتهازي سلطوي،
وشارك لبنان الدستوري خطيئته الوحيدة(والصارخة) في

هذا المجال. والعبرة في تزامن التصفيات الأخوية على نار
قومية خفيفة مع بدء مسلسل الانقلابات. لن يتوقف
التنكيل عند حدود، وسيتسلق قمم الفظاعة والابتكار بين
ذوي الأرحام حزبيا وحركيا حيث دارت سنة دورتها وذر
خلاف قرنه.
اكتسب أنصاف السحرة الحيطة من أمير ماكيافيلي،
والتعصب القومي من أكسل شبرينغر، إنما غفلوا عن سائد
أفكار في عصرها ومنحاها الثقافي. وإمعانا في المغالطة، هربوا
من ماركس باسم اشتراكية عربية خالية من علائق الشيوعية،
وما راقت لهم اشتراكية دولية رفعت لواء الديمقراطية، لا
لتحريفيتها الإصلاحية، بل لاشتباكها الباكر مع الثورة
الجزائرية ومن ثم مع مصر الناصرية، وانحيازها إلى حزب
العمل الصهيوني المشارك في هيئاتها. هكذا تحولت الأصالة
النابعة من القيم عربونا لنهج انتقائي،

خلف تدابير" اشتراكية" لم تعمر طويلا وقطاعا عاما أشبه برأسمالية الدولة، وهزائم عسكرية في مواجهة إسرائيل، واعتنى أساسا بأمن السلطة لا بأمن المجتمع وحصانة الفرد، مقلا في الحقوق العامة ونشطا في تفريخ أجهزة المخابرات. وعليه، تمخضت الثورات وحركات التصحيح الخارجة من أرومتها عن مقادير عالية من الكيفية والكيدية في الحيز العام، ما خلت من عامل الانتقام الجاهز والارتياب مما يعده ساكنو البيت الواحد في ظلمة الليل.

غداة الحرب العالمية الثانية، بان أن الاستعمار القديم فات زمانه. فقدت المتروبولات عنوان سيطرتها وتفوقها على عالم ثالث أتبعته بقاطراتها، خاصة وقد اضطرت إلى طلب العون من شعوبه، وجندتهم بالملايين إبان النزاع، مستنزفة الموارد البشرية الضخمة والمادية الضحلة

لدحر المحور و في سبيل البقاء. لقاء هذه التضحيات أغدقت باريس ولندن، كما بروكسل ولاهاي، الوعود بالحرية، في حين وقفت مدريد ولشبونة على الحياد، وأعفتا النفس من شاغل نظيراتهما، بينما خضعت روما الفاشية المهزومة للعقاب. وما كادت صفحة الحرب تطوى، حتى تبخر غالب الموعود، وتباطأت بريطانيا العظمى وفرنسا الحرة في الانسحاب من المشرق والمغرب، فيما أعلن بن غوريون قيام دولة إسرائيل في قلب العالم العربي وبرعاية دولية غضت الطرف عن نكبة الفلسطينيين وبعثرتهم في مخيمات الشتات.

أجلت فرنسا جيوشها عن سوريا ولبنان مطلع عام 1946 وما لبثت أن ارتكبت مجزرة سطيف(الجزائر) في العام ذاته، فأخذ المغرب برمته في الغليان. لكن بريطانيا نفضت يدها من

فلسطين، تاركة عربها إلى مصير أسود جراء تعبئة الهاغاناه
ورفض الجانب العربي للتقسيم، فاشتعلت حرب نظامية على
جميع الجبهات، باءت خلالها الوحدات العربية بالفشل،
وفضحت تقصيرا حادا استولد السخط على الأنظمة العاجزة
ومهد للانقلاب على الصيغة الدستورية في قراءة ثأرية
اعتبرتها مصدر العجز ومنبت مؤامرة حاكها الأجنبي وضلع
فيها الحكام. في الموازاة، تدفق الذهب الأسود بغزارة حيث
تضاعفت امتيازات التنقيب عن النفط واستثماره، المعطاة
لكارتيل الشركات الغربية، وتقدمت الولايات المتحدة لملء
الفراغ واحتواء التمدد الشيوعي قاطع ما أسماه تشرشل
الستار الحديدي، توطئة لبناء الحلف الأطلسي وانشطار العالم
إلى معسكرين متناحرين. على هذه الصورة، تكاملت ملامح
حقبة صراعية، تداخلت فيها المسببات وتعددت

فيها الدوافع على مسرح الشرق الأوسط، ذي الموقع
الإستراتيجي الهام، الغني بالطاقة والباحث عن مكانة
واعتبار. سوف تستمر المعاناة لعقود، ولن يحمل تفرد
الولايات المتحدة بالقطبية البشائر والسلام، لأن جرح
فلسطين النازف بقي على سوء حال في فضاء له من
الخصائص ما لا لغيره، حضارة أنارت العالم القديم، ضمر
حضورها بقدر ازدياد الحنين إلى عصرها الذهبي، وشعور
عميق بالغبن جراء تلكؤ العدالة الدولية وغيابها، ومنسوب
وجداني فياض قابل لامتصاص جرعات عنصرية بينها تعاطف
شرائح واسعة مع النازيين، ولاستيعاب روافد دينية أصولية،
انفلشت جهادية عنيفة في مجراه. تكفلت الحلقات
العسكرية بإشعال الفتيل بادئا، وتمكنت من أدوات مسلحة
وفرت لها عنصري المفاجأة وسرعة القبض على مفاصل الحكم

دونما إعداد شعبي مواكب. وسرعان ما فرضت مجالس الثورات أسلوب عملها على الأحزاب التي أشركت أجنحتها العسكرية السرية في تطعيم نواة الانقلابات، قبل المباشرة بالفرز الداخلي وإزاحة كتل الضباط المشاغبة على الزعيم الصاعد، تباعا، حتى تماهي الجسم العسكري شبه الكلي مع رأس النظام الجديد.

على العموم، نجحت العسكرتاريا في استمالة جماهير غاضبة من انسداد الأفق، لا باع لها في بلورة السياسات، جددت التأييد للممسك بالسلطة كلما أطاح بسلفه أم خلفه بالتعيين أو بالتوريث؛ سوى أن مظاهر الولاء الشعبوية هذه لم تبدد ما اعتمل عميقا في جوف مجتمع منهك، وأدى إلى شيوع الفكر الغيبي والمزيد من الأسطرة الدينية والابتعاد عن المعاصرة رغم شعارات التحديث.

فلا عجب أن منحت المنظومة "التقدمية" التقوقع الخلاصي
الديني، والمذهبي في مرحلة لاحقة، قسطا من حوائج تحت
جناحها، عبر ترويجها معزوفة مؤامرة الغرباء الدائمة
وسعيهم إلى المس بالقيم وبالمقدسات وطمس الهوية
الفريدة، إلى الطرق على وتر الانحلال الأخلاقي لديهم
والتذكير بالمصائب التي ارتبطت بحروب الفرنجة والتسلل
عبر الإرساليات والاستشراق ونظام الامتيازات.
في خضم الحرب الباردة، استنزف الاتحاد السوفياتي مع دول
حلف وارسو طاقات مادية عظيمة دعما للمجموعة العربية
ضمن كتلة عدم الانحياز. مع ذلك، نسب القوميون ضمنا
هزيمة عام 1967 إلى عدم فاعلية السلاح السوفياتي، وشكك
كثر في الغايات الخفية وراء المعونة والمساعدات. يمكن
تعقب هذه المقاربة في

مختلف المجالات، لازمة خاطبت دفينا غريزيا أفعل من الإنشاء التجميلي وصيغ المعاهدات في غياب رأي عام قادر على الحكم بنزاهة. إن تلمس هذا الأمر دليل إضافي على منحى العزلة الثقافية عن الشرق والغرب رغم ظاهر السياسات والتحالفات، عزلة طوعية بنى عليها التيار الأصولي الديني، بتفرعاته كافة دعاوته ورأسماله التحريضي، واستثمرتها الخمينية بتفوق منذ قيام الجمهورية الإسلامية في إيران عام 1979.

المراد إيضاحه فقدان الثقة بالآخر في الجوهر، أصنف عدوا أم صديقا أملت الظرفية التواصل معه وانتهاز دعم غير مشروط مصلحيا، لأن معدن الطرفين واحد في النهاية، مغاير لذات الأمة العابرة للتاريخ. فلا يصح، في المطلق توطين قيمه، مخافة فقدان الأصالة وتذويب الفروقات بين كامل ودخيل. ولا يجوز تاليا،

اعتماد مناهجه البراقة في الحياة، والركون إلى زيف
مقاصدها، لأن الحق وديعة انتقلت إلى الورثة من الأجداد.
فعندما اقتبست أحزاب وتنظيمات أشكال التأطير والتحكم
من النمط السوفياتي، بقيت أمينة للرسالة الشاملة، وفية
لمبادىء دهرية من منشأ خاص، محكومة بسقوف قيمية
وليدة الهوية، عصية على المتغيرات.
ماذا تنفع، والحال على ما تقدم، الضوابط الدستورية خلاصة
سيرورة حقوقية اقتضت أجيالا من التشريع لحماية المجتمع
والأفراد وترسيخ معالم فصل السلطات.
حرصت ثورة أكتوبر على معطى الحقوق الاجتماعية، ولربما
دفعت الغرب الرأسمالي إلى إجراء إصلاحات بينة في هذا
المجال. في المقابل تفاوت فهم الحقوق السياسية بينهما، في
النظرية والتطبيق، على خلفية ترجمة مفهوم

المواطنة تبعا لخيارات إيديولوجية متباينة ومتباعدة. غير أن كلا النظامين عمل للمشاركة على طريقته، وخضع لمؤثرات شعبية عكستها النخب في مدار السلطة، كما أجبرت، سواء المعارضين هنا أم النقاد والرافضة هناك، على اعتماد جرعات محاسبة وشفافية تراوح حجمها مكانيا، رسمت خطا بيانيا أوصل إلى البيريسترويكا في مقلب السوفيات.

على الضد من هذه التحولات، تحجرت الأحزاب والحركات العربية، أبلغت السلطة أم استوت كيانات سياسية أهلية وفصائلية، مقتناها هياكل وشعارات، تلبي الشروط الشكلية وتجفف المضامين عند المعاينة والامتحان، مسارها ريادة طليعية في المبتدأ، انقلبت ولاية جبرية، وآلت قيصرية فردية تحتكر الحكمة وتؤمم العباد. ومن موقع الآمر، دأب المكتفي بكفايته على قذف

الحمم في محيطه، يرفع من شأن هذا، ويحط من كرامة ذاك، أب راع يكره المساءلة، قادر على شطب أي كان من أبنائه بقرار نافذ أو إيماءة أو بنبسة شفاه. أتى حصاد نصف قرن بأنصاف آلهة يدعون من عليائهم إلى التعبد والتقشف والتضحية بالذات الجمعية في سبيل المالك والقائد الفذ. أما بستان الصحوة، فقد أضاف واستفاض شجرا باسقا وشجيرات، لكل جماعة مرشد أو متولي إمارة معصوم قدوة للناس، وحد السيف لمن يجرؤ التمرد والعصيان، مثيل المنزل على عامة الناس، المقرون بالحرب على الفاسقين والمشركين والطغاة. فبين إبليس والجنة يتعين حسم الخيار.

***

لعل استكمال التنقيب عن بواعث ظاهرة العنف العضوي، يمر بالوضعي الخاص بكل أنموذج في تمايزه عن المشتركات. ثمة غلافات ملطفة أبرزها مصر الناصرية، وتلاوين حادة مخيفة جسدها صدام حسين التكريتي في العراق. وعلى مستوى الجرائم، عدا المرتكب جهارا، كشف بعضها وأميط اللثام عن ضحاياها بعد تسرب معلومات مؤكدة عبر السجناء، مؤيدة أحيانا من المنشقين عن النظام القائم وضاعت آثار العديد منها في غياهب المعتقلات. وبفضل

حملات التضامن وتحقيقات نهض بها الإعلام (الأجنبي غالبا) وتناقلتها المدونات الإلكترونية منذ ظهورها، تم إنقاذ أبرياء مظلومين من تنفيذ الإعدام يحققهم أو تدبر إفراج غيرهم من الزنزانات.

شهد أعرق الديمقراطيات في النصف الثاني من القرن العشرين اغتيالات سياسية من الكنديين ولوثركنغ إلى أولوف بالمه، هزت الضمائر في حينها، استثناءات في مجرى حكم القانون، نفذتها دوائر شديدة الصلة بمتعصبين عرقيين وفلول فاشيين، أو تبنت مسؤوليتها شلل متطرفة يمينا ويسارا على هوامش المجتمع والحياة العامة. تاب نفر منهم عن فعلته واستعاد حقوقه كاملة، ودفع غالبا من في أروقة السلطة تبعة ضلوعه، وحتى صمته حيال الجمعيات السرية الهادفة إلى نسف المعادلة السياسية والتلاعب

بالإرادة الشعبية من وراء الستار. ولا ينكر أن غموضا اكتنف بعض التحقيقات، ولربما أبقى لغز الاغتيال قائما، بيد أن أساليب العنف السياسي انحسرت، ولم تتمكن من القضاء على منعة المؤسسات في المدى المباشر، أو تحدث ردة، فدخلت إيطاليا طور النقاهة، وسارت ألمانيا المنقسمة إلى وحدة اندماجية دستورية، كما انتزعت الأقلية السوداء في الولايات المتحدة حقوقها المدنية، ودفن التمييز العنصري في أفريقيا الجنوبية إلى غير رجعة، ليجلس نلسون مانديلا على كرسي سيسيل رودز، ويحط باراك أوباما في البيت الأبيض، خليفة رؤساء أميركا البيض. وفي أميركا اللاتينية، شفي معظم دولها من تسلط الطغم العسكرية، واستعاد حيويته في كنف أنظمة ديمقراطية رفعت مقاومي الحقبة السوداء إلى سدة الرئاسة ومنهم يساريون حملوا

السلاح وعرفوا السجن والاضطهاد، أوفياء لمخاصمة اليانكي، وجلساء في المحافل يساجلون الأميركي الشمالي في الحقوق والواجبات.
وخلال إنضاج عملية التحولات، لعب لاهوت التحرير، وما زال رافعة للمساواة والتآخي ورسالة رجاء للبسطاء، عنوة عن محافظي المؤسسة الكنسية، وقدم كوكبة على مذبح الشهادة، وأخرا سامهم الشعب قادة في أعتى الديكتاتوريات السابقة، من سانديين نيكارغوا وتوبا ماروس في الأوروغواي.
على نقيض صحوة الاسلامويين في ديار آسيا الوسطى والغربية، وفي أفريقيا، بشمالها وقرنها الشرقي وجنوبي صحرائها، مشى الإصلاح الكاثوليكي الحديث نحو الإخاء والاجتماع المتصالح الهادف إلى نصرة الضعفاء. ويمكن اعتبار هذه الوثبة

دلالة معاصرة تجرأت على الزماني والفقهي والقوالب الجامدة، تماما كما خرجت بروتستانتية مارثن لوثر وكالفين وجان هوس على مشارف النهضة، تقارع كثلكة الباباوات الممسكة بالناس، فأجبرتها على ولوج درب التواضع والانكفاء عن الإملاء، فاتحة فصل الدين عن الدولة، ودافعا لإصلاح مضاد تبارى مع تعاليم التنوير بأفق حداثي تجاوز المعهود، سليل القرون الوسطى، المتحجر بلا حراك.

***

متى تموضعت آفة في الجغرافيا، بما يبتعد عن النسق العام، أي المألوف بالمقارنة في زمن محدد، وجب استئذان التاريخ وطرق بابه للسؤال عن جذورها. فكما زودت الجغرافيا عمارة البناء

التحتي بالحجر والطين قبل شيوع المواصلات وتبادل المواد
الأولية على نطاق معولم، استخرج التاريخ معايير ورؤى
فكرية وقواعد ناظمة وفت بشروط القوامة على الرعية،
وألزمتها القبول طوعا بالحاكم، فغدت جزءا من ثقافة
متوارثة تؤثر الخضوع على العصيان، ومتعت الحاكم بامتياز
شرعي حصري أولاه حكمة مفترضة وخوله الاستنساب.
دعونا نلتفت إلى البدايات في عصور سحيقة غابرة تألقت
فيها حضارتا العهد القديم، وعرفت، معاشا وتدوينا مخطوطا
ومنقوشا في وادي النيل وبلاد ما بين النهرين إلى الهند.
حينذاك، ابتكرت تقنيات جر المياه والتحكم بتوزيعها، كونها
عصب الحياة ومورد الخيرات؛ جراء إملاء الجغرافيا، تحتم
إيكال الأمر إلى سلطة مركزية لا منازعة في إدارتها، ما أنجب

بواكير نمط إنتاج أطلقت عليه الماركسية نمط الإنتاج
الآسيوي، اتسم بالسخرة وغياب الملكية الخاصة للأرض،
وبتقسيم منهجي للعمل ضمن وحدات ريفية، كفائية ذاتيا
في الحد الأدنى. آلت هذه الصيغة الاقتصادية-الاجتماعية، في
معارج تقادمها، إلى إفراز نظام سياسي عرف بالاستبداد
الشرقي، ترك بصماته على تولي الأحكام، وهيمن على دار
الإسلام مع بدء ضمور الحضارة العربية/الإسلامية، المرفق
بإفراغ مبدأ الشورى من معناه، ودخول عالمها عصر
الانحطاط. تعاقبت على الإمساك بالسلطة سلالات غريبة عن
النسيج الاجتماعي الأصلي، تسيدت فوقيا على القوم بأفواج
الجند، واستقدمت أجناسا امتهنت حرفة السلاح لتسييج
مواقعها وموآزرتها.
فمن الثابت أن البويهيين والسلاجقة مارسوا سلطانهم على
خلفاء صوريين، واحتلوا بغداد،

عاصمة الخلافة، عام 1055. تم تبعهم أمراء المماليك
وبكواتهم، البحريون والبرجيون(1250-1517) فاقتسموا مصر
وسوريا، وتصدوا للمغول، فهزم بيبرس هولاكو في عين
جالوت، بعد دخول الأخير بغداد وقتله المعتصم آخر الخلفاء
العباسيين. ومن القيروان التونسية قدم الأغالبة واحتلوا مصر
(969)، إيذانا بخلافة فاطمية (969- 1271) امتدت إلى
الشطر الغربي من أفريقيا الشمالية بعد القضاء على
الأخشيديين. وبين أندلس ومشرق، أقامت قبائل، بربرية في
الغالب، إمارات الرستميين الإباضيين والأدارسة والزيريين
والمرابطين والموحدين، استلمت سواحل المغرب وبسطت
نفوذها على بلاد واسعة بالاستتباع، ومهدت، من قلاعها
ومرافئها، لانطلاق القرصنة البحرية في مرحلة لاحقة.
ومنذ القرن الرابع عشر ميلادي أحاط

سلاطين بني عثمان بالإمبراطورية الرومانية الشرقية، إلى أن أسقط محمد الفاتح أسوار بيزنطية ودخلها عام 1453، لتنطلق حملة السلطان سليم، عام 1516، وتضع المشرق والمغرب تحت راية الآستانة وخلافة أبناء عثمان لقرون. وكان تيمورلنك المغولي قد احتل بغداد ثانية عام 1401 وهزم بايزيد العثماني في معركة أنقرة عام 1402، بعد أن نقل العثمانيون عاصمتهم من بورصة إلى أدرنه (أندرينوبل) عام 1389، لكن هؤلاء استعادوا الزخم وتابعوا زحفهم في غضون سنوات.

منذ مطلع القرن السادس عشر إلى العقد الثاني من القرن العشرين، امتلكت السلطنة العثمانية أراضي عربية شاسعة من الخليج إلى المحيط، ولأغراض عسكرية في المقام الأول، أرست نظام الإقطاعات، تيمارات ولزمات عهد

بها إلى نخب أبلت في الحرب والقتال، مهدت لصيغة الولايات الإدارية في ما بعد.
كما تكيفت الخلافة المنتقلة إلى حاضنة تركية مع إشراف الهاشميين على مكة والحجاز، وبقاء ملل نصرانية عريضة في عقر دارها وممالكها، مجددة مفهوم العهد. وسوف يتعامل المركز في إسطنبول، طوال قرون، مع تقدم جيوشه الظافرة أولا، وانحسار سطوتها لاحقا، خاصة على أطراف الإمبراطورية المترامية وفي جيوب عاصية، بقدر من البراغماتية والدهاء، أنقذ الرجل المريض من الانهيار السريع مع توطن الثورة الصناعية في أوروبا، وخسارة اليونان دون مقدونيا (1828) والجزائر المسلوخة عام 1830، والتراجع من حوض البحر الأسود ناهيك عن تمرد الباشوات، وفي طليعتهم محمد

علي الذي استولى على مصر، واستحدث لورثته خلعة
الخديوي تحت عباءة السلطان (نظريا).
إن مسلك السلطنة العثمانية لعظيم الدلالة على تكلس
البنى السياسية وتخلفها المزمن، قياسا بالتحولات الحضارية
والمعرفية العميقة من حولها. فات فضاءها منتج التنوير
والنهضة، ولم يعرف تراكما للانجازات والقدرات مثيل الغرب،
فبقيت أبوابها مغلقة في الغالب أمام الركب. لقد كان هذا
الأمر سلبي النتائج على أسلوب إدارة المنطقة برمتها، إذ ترك
لقساة دمويين فرض الهيمنة ببلوكات الإنكشارية وأجواق
المرتزقة على قاعدة الدفشرمة المنزلة بالنصارى في الروملي،
اختصر أحمد باشا الجزار، والي عكا، مساوءهم مجتمعة.
هكذا درج الباشوات على التنكيل بكاخياتهم وصرافيهم
وسائر معاونيهم، كلما

أغاظ أحدهم الآمر الناهي أو عظمت مكانتهم وثورتهم في ظل الولاة.
العلامة الأبرز في تكوين السلطة، إنما تشبهت بمحمد الفاتح وما رسمه مانعا لطموح الأقرباء، عبر إقدام السلطان على قتل أشقائه من أجل العالم، أي استواء السلطة دون مطالب في يد الخاقان. فقد كاد التنازع على المركز الأسمى بين الورثة أن يحول دون استقرار الدولة قبل مجيء محمد الثاني، بعد أن واجه سلفه مراد الثاني منازعة دموية على السدة حسمها سحق المتمردين. لاحقا، سوف ينوب عزل أبناء السلطان في القفص عن تصفيتهم الجسدية أحيانا. إنما ارتفعت وتيرة التنكيل بأعضاء الديوان (المجلس المصغر المعني بتسيير شؤون الدولة السنية ومعاونة السلطان) من الصدر الأعظم إلى سائر الوزراء، وتدحرجت رؤوس كثيرة على

مذبح البلاط كلما استفحلت الصعوبات، أو جراء مؤامرات السراي الدائمة المعدة في جناح الحريم بمساعدة الآغوات. فكبار رجالات الدولة، في مبتدأ التنشئة والمحصلة، عبيد السلطان، رهن مشيئته مهما علا شأنهم، وكبش فداء عند الاقتضاء.

لا مناص من قراءة الحاضر في مرآة عاكسة للتوليفات السياسية، من صنائع زمن ولى بغية تبيان الترسبات والنظر بعين ثاقبة إلى خطوط اللوحة القائمة، المتحدرة من أصل أجهز على معاني المساواة. وليس من مبالغة الوصف أن ملامح الاستبداد الشرقي تنجلي حالما تزال قشرة الطلاء عن الماثل المرئي، ويرفع النقاب عن اتصالها بمحرمات.

بعيدا من الغوص في حقل متموج كثير الشعاب، المستوفى لازمة الإطاحة بالأقربين

وحياكة تهم ومبررات على خلفية مهجوسة باشتداد ساعدهم، أودت بهم إلى قدر محتوم. فحيثما انتفت الصلة الرحمية أو السلالية كدافع لاقتلاع أصحاب النسب الرفيع مخافة المزاحمة على رأس السلطة يوما، بان وسواس الشك بالولاء المطلق مدخلا إلى إعمال السيف في رقاب المتقدمين في الخدمة وذوي النفوذ، لأن شهوة السلطة كامنة في نفوس الكائنات، واستباق عدواها خير علاج.

إن إهراق الدم داخل البيت الواحد، الأسري والنظامي، الذي طواه تداول السلطة والمناصب في العصر الحديث، استمر متبعا في بيئتنا الإقليمية، سلاحا ماضيا من أجل جلوس واحد أوحد، لا شريك له، على قمة الهرم. في نهاية المطاف، يفيد متسلم الخلعة من عنوان

البطش والحسم، وهو عالم بما يوفره تقليد مديد أوصى بتعضيد ولي الأمر ومجاراة أحكامه، وهيأ تكوين الجماعة الذهني للإقبال على الخضوع وتأدية طقوس الولاء. وكم من زعيم نودي به وهلل لصلاحه قبل أن يجف دم ضحاياه، ويطبق الصمت الرهيب على الأنصار والمغلوبين بسواء.

***

تمدنا أفريقيا الشمالية، في عهد بني عثمان، بمعلومات وافية عن نوعية الحكام وكيفية بلوغهم مناصب مستحدثة تشرفتهم حيازة ألقاب من السلطان وتحت عباءته، واعترافا بواقع الحال. فجل الولاة المعينين من الباب العالي نعم بصدارة شكلية، إن لم يقتل، فيما عادت الإمرة الفعلية إلى نافذين طارئين، بيوت مماليك في

مصر، ودايات (بكوات) قباطنة بحر تخلوا عن المسيحية وتزعموا طوائف القراصنة في مرافىء الجزائر وتونس وليبيا، وآغوات أنكشارية أتوا مأمورين وما رحلوا، رفد الرقيق الأبيض القفقازي والمرتزق من الأناضول صفوف أوجاقاتهم العاصية على أوامر الباشوات. وفي ظل الولاء الاسمي للسلطنة، ساد بينهم جميعا قانون غلبة الأقوى، يزيح خاسرا بقتله، ويرفع طامحا بقوة السلاح، حتى يأتي من يطيح به، طالبا التثبيت واللقب الشريف من إسطنبول، لبقاء البيعة للسلطان وقبوله الهدايا من عبده الأمين. فعندما شاع شراء مناصب الدولة العلية بالمال، ما أهلك باشوات كثرا جزاء هفوة بغية إعادة ملء الشواغر سريعا، اجتمع لدى عمال أفريقيا، الخارجين على قوالب الإدارة ومغتصبي المقام عمليا، التماس العفو المشفوع بالتقديمات العينية

(العبيد والحريم المسبي خاصة) والنقدية المناسبة. بذلك، حافظت السلطنة، بقدر من التنازلات، على ممتلكات نائية، ليس في مستطاع المركز ترويضها أو إحكام القبضة عليها، فكان علاج الضعف المرونة إزاء الأطراف، عملا بالفائدة من زودهم عن حياض الخلافة، وغفران التصفيات الناجمة عن الصراع المحلي على السلطة دون إجازة مسبقة من حاشية السلطان. وحتى مشارف القرن التاسع عشر، مع انحسار القرصنة والتغلغل الأوروبي المتواصل في الساحل تمهيدا للحملات، استقرت هذه المعادلة بين مستجير بحماية إمبراطورية طال انتظارها في أوقات الشدة، وعاصمة خلافة عاجزة عن الإمداد، تشدهما رابطة الدين في مواجهة الكفار، لا علاقة عضوية رحومة لأي منهما بالمحكومين، ولا اهتمام يذكر بالخير العام.

جفف تناوب الجهال على مقاليد البلاد مصادر الوعي حتى كادت أن تنضب، يقف جور الوكلاء، فاقدي الرحمة، للحراك بالأذية والمرصاد. هكذا أطبق الجمود على مناحي الحياة بعامة وتسمرت المعارف قروسطية وما دون. اندثر علم الكلام، وما عاد الاجتهاد الفقهي حياً، ودفعا لتهديد جحافل المغول الدائم بلور تقي الدين أحمد ابن تيمية (1263-1328) نظرية كفر الحكام (السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية)، وأنكر مشروعية خاناتهم في ممارسة السلطة باسم الإسلام، معيدا السيادة المطلقة إلى القرآن (بحرفيته) والسنة النبوية. في الجوهر، ومن خلال ملخص الاقتداء بالسلف الصالح، تجاوز الحنبلية إلى أصولية راديكالية بلباس زمانه، بعثت في القرن العشرين لدى المتأثرين بتعاليمه

وشروحاته، رفدها محمد ابن عبد الوهاب (1703-1792) بضرورة ممارسة الدين الإسلامي كما في عهد النبي ومحاربة البدع وناقلي الكفر من طرق ومعتقدات صوفية حسب نص "كتاب التوحيد" . على هذا المنوال ساد فكر محافظ أضاف طبقة على طبقة وعبر عن واقع الحال المزري بالهروب إلى الوراء خوفا من الفرنجة الكفار، وامتثالا لحكام مسلمين لا علاقة عضوية لهم بمجتمع المحكومين منذ أن أخذت إمارات الأندلس، مصدر الإشعاع، تنهار الواحدة تلو الأخرى، تحت ضغط الكثلكة الإسبانية الزاحفة من الشمال.
وحيث تمحور الصراع خلال حقبة قاربت الألفية حول الهوية المرجعية بين طرفين، غربي وشرقي، استنجد كلاهما بالحمية الدينية بادئا،

خلعت أوروبا الثوب الديني تدريجا إثر مخاض طويل، متطلعة إلى الدولة/الأمة والقاعدة العلمية -الصناعية.
في المقابل، اكتفى الفضاء الإسلامي بديمومة الطابع الديني الشامل، وارتضى بدفاعات زعامات غريبة تملك الشكيمة وفنون القتال، إنما تفتقر إلى المعارف والتقنيات، أقعدته في إشكالية ما استطاع حلها بين المعهود والحديث، وأسقطته خائر القوى في قبضة بني عثمان. لقد احتكر دفة الحكم منادون بالغيرة على الإسلام، كانت تلك بطاقة اعتمادهم الأفعل، قلما اهتموا بترقي الرعية وسؤددها. إنطلاقا من الحافز الديني سوغ لإخضاع البلقان حتى مشارف فيينا من الجيوش العثمانية (واستيطان حاميات عسكرية في حواضره، كما انتقال شرائح سلافية وألبانية من

المسيحية إلى حظيرة الإسلام)، فما قورن أبدا بالحملات الصليبية أو وصف على غرارها بالاستعمار في المدونات والمنقول رواية وشفاهة. وعلى مسافة بعيدة من المسرح الأوروبي، أضحى اجتياح بابر المغولي شبه القارة الهندية (1526)، الذي أكمله أكبر شمالا منتصف القرن (1559-1576)، إنجازا حضاريا وفتحا مباركا، نقيض غزو أعمامه وأبناء جلدته ديار الخلافة، الموسوم بالهمجية والمحطم من المماليك، فغدت مضبطة ابن تيمية بحق أحفاد جنكيز خان حبرا على ورق باختلاف المكان.

وجاز القول ان الكيل بمكيالين لم يكن وليد نفاق غربي ووقفا على فريق بعينه، إنما تشرب منهجه جرعات وافية من ينبوع شرقي غزير. وعليه، فإن الحول المعياري المتفاقم اليوم، قديم

العهد، يمعن المتشددون من كل صوب في التعويل عليه، لا تعالجه جراحة تجميلية، ما لم يقوم الاعوجاج من مكمنه في الأساس.

الأمر حقيقة داخل الحدود، وخطأ وراءها رآه باسكال حيثما تخلى البشر عن القياس الموضوعي، وخالفوا المنطق المجرد من الغايات. جعل التناحر على اقتطاع الأرض من العقيدة الدينية مطية، ومن سكانها ضحايا وأتباعا بالإكراه، فما شذ طامع عن هذه القاعدة، طالما هيمن التعصب ومنع النقد من كسر المحرمات واجتياز الأسوار؛ خسرت الحضارة العربية/الإسلامية مقومات وجودها الحي نتيجة إحجام ورثتها عن المضي قدما في حقول المعرفة والابتكار والتسامح، وإغلاق منافذ التلاقح والتجديد بإحكام. من شدة التمسك بمفاهيم جامدة أحاطت بالدولة والمجتمع، راوحت

منظومة بليدة في المكان، عاجزة عن مقاومة نفوذ أجنبي اخترق أحشاءها واستعمر أمصارها بوضع اليد، فعزت مجمل أسباب سقمها وتقهقرها إلى عوامل دخيلة (بعد الفرحة بطرد الصليبيين والفتوحات العثمانية والمغولية، على ما صورته أيام عز واستعادة أمجاد)، معرضة عن التآكل الداخلي العامل في جسدها وثقافتها من ذي قبل، وعن عملية بناء قوة ذاتية من نوع جديد في الغرب، تجلت في إسبانيا مع الملكة إيزابيل وتوجت باكتشاف الأميركيتين واجتياز رأس الرجاء الصالح، وعهد الملك فيليب الثاني. ولئن بكى أبو عبد اللـه (غرناطة 1492) آخر ملوك العرب ملكا أضاعه في الأندلس بيديه، عـم طلب الثأر، ولم يدرك المؤرخون والعلماء أن هزيمة الأسطول العثماني في معركة ليبانت البحرية عام 1571 أذنت بتغيير ميزان القوى

وبغلبة علم البحار وتقنيات الملاحة الحديثة على نموذج المواجهة القديم.
سوف تنام مقدمة ابن خلدون وأعماله في أدراج المحفوظات، ولن يتنبه الفقهاء والدراس، سيما المقلدون منهم والإحيائيون، إلى مدى الضرر اللاحق جراء الإيغال في الشحن الماضوي المغلق على الذات، وما جنوه من قطع مع رواد الفلسفة الراشدة، وقطيعة مع مصادرها الهيلينية المتنورة والشرقية التأملية المتصوفة قبل ظهور الإسلام.
ألقت القراءة المتشددة للنص القرآني الحرم على الفكر النهضوي، باعتباره موصولا إلى المادية، ومعاد للروحانية في أحسن الحال. يعاب على مدرستها الأصولية استيلاد سلفية جهادية، تضرب عشوائيا وترمي بالكفر والشرك حسب تفسير متزمت للكتاب الكريم والسنة، كاره

للتأويل وناه عن الاجتهاد. وفي ما تدعيه حكرا للصوابية وطريقا نحو الإيمان الحق، يسجل عليها عناية مقلقة بمظاهر القوة واستخدام مفرط للعنف في مجرى الدعوة والالتزام بالفروض على نحو التمايز والإكراه. إن حاصل الصحوة، في لبوسها الفقهي وممارساتها الإقصائية، لعلى طرف نقيض من الروحانية المزعومة، ولربما فاق الدنيوي لديها في الجوهر، الادعاء الإيماني المزعوم، ما لا ينفيه، بل يؤكده، ذلك الوعد باللذات في الجنة المزين للاستشهاديين، تعويضا عن كبت وحرمان غذتهما لاءاتها الانطوائية، ويعيد إنتاجهما نموذجها الاجتماعي الأرضي، الغارق في السواد. فلجهة المعرفة بالآخر واللجوء إلى القياس، يعتري الأصولية المذكورة جهل بالمحمول السامي للديانات، ونكران لقابلية استيعابه من معشر البشر، وترجمته في

السلوكيات، على غير الصورة المادية المهينة الملصقة بالأغيار، والسيناريوهات القائمة المعادية للخير والقيم، المنسوبة جماعيا إليهم. وما ذلك إلا الوجه الآخر لصفوة " الأخيار" المأزومة والساكنة خارج التاريخ، التي ترى النعمة والإجازة الإلهية في صفها عهدة وترشق الناس جميعا بالموبقات والضلال، ليغدو مصيرهم وقدرهم في النار.

***

ختاما للجولة في التاريخ ، يتعين الأخذ بمادة في منزلة الدرس الأول لفهم التحولات الكبرى، خلافا لكتابة كلاسيكية عمرت واستفاضت في تدوين صولات ومآثر الملوك والنبلاء. لقد أهمل التاريخ السياسي، المسطر فتوحات وحروبا ومعاهدات، جوانب اجتماعية وفكرية عريضة، كان لها الأثر العميق في صناعة الأحداث وبلورة المؤسسات، ولربما أضاءت على السيرورة العامة في بعديها، الدولتي والنظامي. ومن المغالطة رد التراجع إلى تمزق

دولة الخلافة وانهيارها، لأن الحضارة العربية/الإسلامية لم تكن وقفا على العنصر العربي دون الأعاجم.
فخلال ما يقارب ستة قرون (من الثاني عشر إلى السابع عشر)، حققت أقوام دخلت الإسلام انتصارات متوالية، شرقا وغربا، أوصلت العثمانيين إلى أبواب فيينا مرتين، والمغول إلى قلب الهند، والتتار إلى وسط أوروبا، مقابل الجلاء عن الأندلس، القوطي في بنيته السكانية الأصلية. كذلك، حجبت الضغينة العربية على الترك (والمغول)، إنجازاتهم الرائدة في حقول عدة، وسماحتهم النسبية إزاء أهل البلاد الخاضعة لحكمهم (بدليل إضافي قوامه احتضان اليهود والعرب المرحلين عن الأندلس).
يعنينا الإخفاق الشرقي، لا بوصفه عائد عورة أو عاهة عضوية في الأصل، لأن عوامل

القوة العسكرية توافرت لديه بقدر غريمه على الأقل، إنما تلاشت نتيجة الإسار الفكري والمجتمعي، وبطء وتائر الإصلاح والتحديث المتلازمين منذ انطلاق صفارة سباق التجديد مع الغرب بحلول نهاية القرن السادس عشر. فعند كل محاولة جادة قام بها السلطان، بمؤازرة من تبوأ الصدارة العظمى من آل كوبرولو على الأخص، عمل المحافظون، وفي مقدمهم شيخ الإسلام والعلماء، على إجهاضها، بداعي تعارضها مع تعاليم الدين، والحذر من اكتساب عادات الكفار. فعوض تفتح المواهب واستغلالها، جرى إهدارها وبعثرتها، ريثما تبدت حاجتها الملحة في المجال العسكري وملحقاته من مصانع أسلحة وذخيرة وأحواض سفن، وخاصة من معاهد إعداد قطاعية إلى قيادة الأركان. لكن الإمبراطورية العثمانية، حينما

رغبت متأخرة النهوض وأصدرت خطي غولخانة، بداية
التنظيمات، تعذر عليها اللحاق، فعاودت السقوط مجددا في
الاستبداد الحميدي.
لبناء الشيء على مقتضاه، والإحاطة بأسباب الخلل، والتردي
العميق قياسا بما راكمته أوروبا العائدة إلى الشرق، والسائرة
من اكتشاف أميركا إلى هيمنة كونية استعمارية مع العصر
الحديث، يعيننا تعقب تشابك فكر طليعي استشرف
المستقبل طليقا من محبس الكنيسة، مع عملية بناء
مؤسسية، تكاملت وتفرعت واغتنت عند كل مفترق.
فبعد مجلس البارونات أو الحضرة الملكية (1086) وقوننة
المحاكمة أعطيت الماغناكارتا "الشرعة الكبرى" (1215) في
إنكلترا، لينجز سيمون دي مونفور في العام 1265، أول برلمان
مختلط، مؤلف من فارسين عن كل مقاطعة (37

مقاطعة) وممثلين من البورجوازية أي ساكني كل مدينة.
حينها، خص هذا النموذج الفريد النبلاء والبورجوازية بالموافقة على سن الضرائب وكيفية تحصيلها. وفي عهد إدوارد الثالث (القرن الرابع عشر) أضحت اجتماعات البرلمان دورية، وتـم فصل مجلس اللوردات عن مجلس العموم، دون أن تنال حرب الوردتين بين جناحي يورك ولانكستر (1455-1485) من المؤسسة الوليدة.
وفي فرنسا الباحثة عن وحدتها، دارت حرب خلاقة طاحنة، أنهكت مواردها، فأحرقت جان دراك في روان (1431)، واقترفت فظائع وتصفيات دموية خلال صراعات القصر مع الدوقيات والكونتيات، إنما بدأ تقييد الملكية المطلقة، ولم تحل حقبة لويس الرابع عشر الساطعة دون نمو الأفكار التحررية، الحقوقية الدستورية، توطئة للثورة. وبالمقارنة، سيطر

المغول على كامل روسيا عام 1248، فأقاموا حكاما على المقاطعات مع الإبقاء على النبلاء، وأدى الاجتياح إلى عزل روسيا الأرثوذكسية عن الغرب، وإيقاع المرأة في الدونية، ما سوف يأتلف مع صيغة الأوتوقراطية، ويهيئ إطالة أمد القنانة والاستبداد.

علاوة، شهد القرن الثاني عشر ولادة جامعات أوروبية (مونبيلييه، باريس، أوكسفورد، بولونيا، سالامنكا وسواها) من نمط جديد خارج النظام الأكليركي، اعتنت بالمعارف الشاملة ومارست لونا غير مسبوق من الحرية الفكرية(ولا ينفى أن الأزهر الشريف سبق المبادرة الأوروبية، إنما غلب عليه الوجه الشرعي وبقي معلما يتيما وسط الأطلال). وفي غضون قرن واحد، اختفت التجارة العربية عبر المتوسط جراء الحملات الصليبية والزحف الإسباني نحو

الأندلس، 1085 (طليطلة)، 1118 (سرقسطة)، 1236 (قرطبة)، بينما قامت رابطة الهنسا الألمانية (1328) تحمي الحقوق التجارية، في موازاة نهضة البندقية وجنوى جنوبا. عام 1407، تأسست وقفية بيت سان جيورجيو، أول المصارف الرسمية في أوروبا، فيما حظيت المدن بالبراءات والامتيازات بدءا من القرن الحادي عشر. هكذا، أخذت ترتسم معالم اقتصاد حديث في كنف القانون الوضعي وحصانته، وتنتصب مؤسسات علمية ودستورية حاضنة، توسعت طردا، وتكاثرت ناقلة بذورها الشافية إلى أوروبا الجرمانية، والسلافية وراءها. ولأن التاريخ حمال أوجه، تعذر إيجاد خط بياني مماثل لدى خصوم الأحلاف الأوروبية، على الرغم من تفوقهم في الميدان، فاقتصر محصول الفتوحات على جزئيات حضارية، أعطت بهاء

لعظمة السلطنة ورممت نظامها الإداري والضرائبي، لكنها لم تبعث تحديثا بنيويا، وتطلق طاقات المجتمع، حيث قاوم المحافظون محاولات الإصلاح بضراوة، وغابت صروح العلم، فضعفت المناعة، وأضاعت زمنا ثمينا قبل الاستجابة للمتغيرات إسوة بالحاصل حثيثا في الغرب. أما خانات التتار فقد أعادوا ساعة الروسيا إلى الوراء باعتماد نظام قبلي على صورتهم، افتقد الحاجة إلى المدينة والرهان على حيوية مجتمع ريفي مسيب، وماهى بين الموارد والأتاوات. وفي الهند، انتصر محمد الغوري على الراجابوت (المهراجات) في معركة تراوري عام 1192، إلى أن اغتاله أبيك، العبد السابق، معلنا نفسه سلطان دلهي (1128)، وباشر تدمير البوذية الهندية.

ومن جنكيزخان (1221) إلى تيمورلنك

(1398)، حملات مغولية ضمت البنجاب وانتهت إلى نهب دلهي. مع أكبر، المثقف بامتياز إلى شاهجهان (1628-1658) باني "تاج محال"، بلغت الحضارة الإسلامية ذروتها، نخبوية جعلت الأوردو لغتها بأحرف عربية ومفردات عربية/ فارسية، سوى أن السكان اعتمدوا لغات محلية شعبية (هندي، بنغالي، بنجابي، مهاراتي، الخ)، وحافظوا على تراث تأملي نوراني متقشف تلاقح مع الديانة الوافدة. أخضع المغول طبقة أرستقراطية متناحرة، جاعلين من بلاطهم مضرب مثل في الأبهة والفخامة، يستقدم أرباب الإبداع والحرف والفنون، جزيرة طغت على بحر من الفقر والعوز، قدر إثينات مهمشة غريبة عن بيئتهم راودها مفهوم الحرب المقدسة ضد المسلمين. وبانقضاء القرن الخامس عشر، أنشأ ناناك جماعة السيخ، (الشباب باللغة

الهندية) لمناهضة الاحتلال، شكلت مذذاك نخبة عسكرية ومن ثم عمودا فقريا للجيوش البريطانية المرابطة في الهند، درة الإمبراطورية والتاج.

إن مفكرة الألفية الثانية تروي حكاية التباين بين شرق وغرب، وتشير إلى مواضع ذلك التفاوت المتباين فصولا عبر الحقبات. فمن الماغناكارتا إلى القانونامة (محمد الثاني) العثماني قرنان، مع اختلاف المردود النظامي والحقوقي. وبين عصر النهضة والتنظيمات فترة زمنية توازي ثلاثة قرون ونيف، دون إغفال النقلة النوعية، الفكرية والدستورية الهائلة، التي أحدثتها ثورتان، فرنسية وأميركية، في موازاة ثورة صناعية بدأت في بريطانيا وغيرت ملامح المجتمعات والعالم. وإذ دخلت السلطنة العثمانية طور المعاناة تبدلت الهيبة معاندة خاسرة على تخوم الجاري أوروبيا، الملتف عليها من البحر والبر،

والنافذ إلى أوصالها بموجب نظام امتيازات ضمن الأقليات أيضا، فإن بلاد فارس، الواقعة بمحاذاة دار الخلافة شرقا، اعتنقت المذهب الشيعي وبدت أكثر قتامة من عقد إلى آخر. وقد انتقلت من الشاه الصفوي، صاحب الشأن الإقليمي، إلى القاجاري (1736)، معزولة وراء خطوط معاهدة قصر شيرين (1639)، تطبق عليها كماشة روسية-بريطانية طردا، تجاوزت عتبة القرن العشرين بزي وضيع رث، خالية من المكتبة والمدرسة وطرق المواصلات.
ولو شاء القيمون التلخيص في الإصلاح، لاستمعوا إلى رفاعة الطهطاوي (1801-1873)، إمام البعثة المصرية إلى باريس، يتحسر على المفقود، لا شبهة عليه في الإيمان والانتساب الحضاري، بقوله: "علينا أن نأخذ من أوروبا المعارف البشرية المدنية والعلوم الحكمية

العلمية.. أما روح حضارتهم (أي الأوروبية) وفلسفاتهم فهي مليئة بالحشوات الضلالية المخالفة لسائر الكتب السماوية.. ولا تتوهم أن علماء الفرنسيس هم القسوس، فاسم العلماء يطلق على من له معرفة في العلوم العقلية.. وسيظهر كل فضل هؤلاء النصارى في العلوم عمن عداهم. وبذلك تعرف خلو بلادنا من كثير منها. وأن الأزهر وجامع بني أمية بالشام، وجامع الزيتونة بتونس، وجامع القرويين بفاس، ومدارس بخارى ونحو ذلك، كلها زاخرة بالعلوم النقلية وبعض العلوم العقلية من العلوم الآلية".

هي الحقيقة، حث الكندي على الاعتراف بها قبل الطهطاوي بألف عام، راسما "خليق بنا أن لا نخجل من الاعتراف بالحقيقة واستيعابها مهما كان مصدرها" وأرشد ابن رشد (1126-1188) أنه علينا أن نستعين على ما نحن بسبيله،

بما قاله من تقدمنا في ذلك، سواء أكان ذلك الغير مشاركا لنا في الملة، أو غير مشارك في الملة، ومن القدماء قبل ملة الإسلام.

***

تصفية التركة الاستعمارية
والوعد بالأفراح

من السهولة بمكان مجافاة الوقائع البعيدة، واختصار المآل الحاضر بذيول التركة الاستعمارية، الأقرب زمنيا، والأكثر انطباعا في الوجدان. يصح في إدانة الاستعمار محمول الهيمنة الأجنبية ووقوفها عائقا أمام حق تقرير المصير. كما أنه تثقل بالتهم المسندة إليه والمثبتة، من نهب لموارد البلدان التابعة، واستلاب شعوب ضعيفة وتغييب شخصيتها، إلى حرمانها مزية الرشد وقابلية التلاقح إراديا بتكافؤ.

فما من حاجة لإلصاق عورات إضافية شنيعة بفاعل جرم مشهود، لأن كفاية الدليل تغني عن الاسترسال. غير أنه من المغالاة والنسج الاعتباطي، ذلك الشطط الطهوري، رافعة الاعتداد القومي/الإسلاموي بالبراءة من كل إثم، وتنزيه الذات الجمعية من الخطيئة، نصيب الآخر المعتدي، على وجه حصري من كل داء.
خلف الاستعمار ندوبا وأحقادا، كونه اعتداء موصوفا على حرمة الأوطان بدافع استئثاري توسعي، عار من المشروعية التاريخية والإنصاف. كان آفة كتلة أطماع استولدت حروبا وجردت فاقد السيادة من حرية وطنية غالية، ويجمع السواد الأعظم راهنا، في البلدان المستعمرة كما في المتروبولات السابقة، على محصلتها السلبية، وعلى سقوط ادعائها الوجاهة في حقول بعينها،

نقلا عن المعتمد في المركز الرأسمالي، ولا يمحو الأعمال الجليلة التي قام بها نفر من المخلصين للقضية الإنسانية، ومن المتنورين الأكفاء، الذين أعطوا الخدمة العامة معناها القويم، ولربما أحبوا التحديث والمساواة أمام القانون بصدق ووفاء لالتزام أخلاقي مبدئي. لذا، نذر مرسلون وجماعات مدنية رؤوفة جهودهم للتعليم والرعاية والإرشاد الزراعي والتنقيب عن الآثار، وكشفوا المهمل والمنسي من تراث، ونادى آخرون بمبادىء الإلفة والتآخي، نقيضا للعنصريين ودعاة التفوق البيولوجي. ومهما شاب تكوين السلطة وإشغال المواقع الحساسة في أجهزة الإدارة والأمن من موظفين في ملاك المستعمر الخارجي، يصعب إخفاء اللمسات الإيجابية المتمثلة في تنظيم الحياة العامة وهيكلة

الإدارة، وعلى الأخص توليف ترسانة حقوقية والشروع في هندسة المؤسسات، إلى الآليات الدستورية النظامية، فسواء تأخرت ولادة المجالس التمثيلية، أم ولدت مطواعة مسايرة للواهب، فقد تبرمت منه في محطات وخالفت مراده، ما استوجب تعليق الدستور وحلها بقرار استنسابي من فوق. وقد أدرك أشد الذين قاوموا الاستعمار وعرفوا دسائس دوائره ومراوغتها، بل ذاقوا مر السجن والإبعاد، أن التصفيات الجسدية العتيقة ما كانت أداة منهجية في عهدته، وقلما شهد المجتمع السياسي صراعات دموية جراء التنافس على السلطة المحدودة تحت رقابته. ليس في هذا الأمر من منة أو إحجام ظرفي، لأن الإجراءات القانونية توطدت تباعا، وسلخت إمكانية سلب الفرد حصانته وحياته من جانب

الحاكم، فزال هذا اللون من الاستبداد، في الوقت الذي ضاعفت الأنظمة الشمولية الغدر والإعدامات في دول سيادية كاملة الأوصاف.

تحت مصطلح الاستعمار، تكاملت لوحة بتلاوين مختلفة أنجزت على مراحل، يعنينا منها الفصل العربي الذي انتهى إلى سايكس-بيكو، واقتسام المشرق العثماني جوائز فرنسية وبريطانية بعد انهيار السلطنة. تراوحت صيغ الإلحاق وتواريخها، بين قطر وآخر، كما تغيرت هوية الممسك بالولاية حسب المناطق. في المغرب، تحولت الجزائر إلى مقاطعة المغرب تحت حماية باريس (باستثناء الجيب الإسباني)، نظير تونس، وانفردت إيطاليا بليبيا. فكثرت الجاليات الأجنبية المقيمة في هذه البلدان تبعا للأفضلية المعطاة إلى رعايا المتروبول، عدا المعمرين -الجزائر- حيث الاستيطان العريض.

أما في الجزيرة العربية، فتوزعت المحميات البريطانية سواحل الخليج العربي (المنازعة في عنوانه بلاد فارس)، وغدت عدن مستعمرة وقاعدة التاج البريطاني، وجميعها محطات مراقبة وإشراف على طريق الهند، ومنطلق توغل النفوذ البريطاني إلى قلب الجزيرة السعودي المستقل واليمن الأمامي الغارق في القبلية والعزلة. ولجهة وادي النيل، بسطت بريطانيا هيمنتها على مصر الملكية الدستورية، تستأخر توقيع معاهدة تعيد السيادة الكاملة للمصريين، وترابط جيوشها في الداخل وعلى قناة السويس، يملي سفير لها فوق العادة السياسات، ويفهمها، عند اللزوم، بتحريك قطعانه العسكرية ومحاصرة القصر.

من كوندومنيوم بريطاني/مصري مشترك، جعلت لندن السودان حديقة خلفية لمصر، تتحكم

شبه وحيدة بإدارته، وتعود الإمرة لها في الشأن المصيري.
أخيرا، توزعت بريطانيا وفرنسا مناطق النفوذ في الهلال الخصيب، واستصدرتا تكليفا من جمعية الأمم نص على الانتداب، خرجت بريطانيا من خلاله بحصة الأسد، ترعى وعد بلفور في فلسطين وتنصب فيصل الهاشمي ملكا على العراق، وشقيقه أميرا على شرق الأردن، واكتفت فرنسا بسوريا ولبنان، تواجه صعوبات جمة في دمشق وتشدد على الخاصة اللبنانية والحضور الثقافي المديد.
عبر المشهد العام هذا، تبرز نقاط التقاطع في التبعية، والتباعد وفق الدرجات. فالانتداب، وإن جاء ترجمة لمعاهدة سايكس-بيكو، ظل محكوما بسقوف وقواعد نظرية، أممية المصدر، صفته مرحلية وغايته محددة. من هنا كان لزاما على الدولة المنتدبة إنضاج ظروف النضج

والاستقلال، وهو ما تلكأت حياله لندن وباريس، وحرفت مضمونه قدر المستطاع.
مع القصور الناتج عن هذه المقيدات، استوت الإدارة والسياسة على مقدار نظامي حقوقي واجه مقومات بنيوية وصمد، باستثناء فلسطين التي تعرضت لهجرة يهودية كثيفة عطلت المسار ونسفت الإجراءات. في الموازاة، ثابرت مصر على نهج دستوري مؤيد شعبيا وضامن للسلم الأهلي، اقتلع العنف من نادي السياسة على الرغم من المظالم الاجتماعية وحدة الصراع. ولم يعرف عن المغرب، في شكل عام، نزعة دموية في التعاطي السياسي آنذاك، إذ اتبعت النخب، على قاعدة الولاءات القبلية والمرجعيات الروحية من طرق وعائلات، إضافة إلى العنصر المديني، منحى السلوكيات الفرنسية في الإطار

العام، وتواصلت مع مفاهيم التسامح بنكهة إسلامية مميزة.
ومن النافل أن الجزيرة العربية عاشت ظروفا مغايرة تماما، في انتقالها من البداوة وانفتاحها البطيء على العالم الحديث، حيث استتبت ساحة المملكة لأسرة آل سعود، دون منازع، وسارت المحميات من المشيخة إلى الإمارة في عهدة الأسر الحاكمة، يضبط إيقاع الحياة العامة في حيزها الأضيق، مقيم سام بريطاني، ويشرف على نزاعات أهل النظام. رويدا، سوف تلوح معالم ديمقراطية أرستقراطية بغلاف جديد، سندها الأعراف والتقاليد، تضم ذوي النسب والميسورين من الحضر والجيل الجديد من أصحاب العلم والاطلاع.
تعرضت الحقبة الدستورية لنقد جارح مجحف، أطلقه فكر قومي هائج أخل بمعايير الاتزان. ولقد جنحت الحركة القومية إلى اختزال

اليقظة العربية بالوحدة واجترحت وصفة سحرية تغني، بقوة الدفع، عن سائر العلاجات، وتدعم خلاصيا مجتمعات، متفاوتة المبنى والصورة، في بوتقة واحدة محصنة بالمسلمات. إن سيل التحولات في كل أرجاء المنطقة لم ينقطع أبدا محركه ولا يستقيم إنكار حصوله بحجة عدم اقترانه بالمدوي والمفرقعات. حسب تلك الحقبة إن المنقب في أوراق دفاترها، مدونات وشهادات ومعاينة لعمارتها الأدبية والحقوقية، لن يخجل من التنويه بطابعها وابتعادها عن العنف السياسي. قد لا تكون صنعت المعجزات، ما لا يطلب أصلا من كيانات مقيدة، إنما آتت إعادة النظر بأحكام قاطعة ظالمة اعتاش أصحابها على قراءة أسطورية نفعية تاجرت بالوعود والأفراح.

***

يممنا شطر التاريخ، عازمين بيان المعارج، لتلمس ما يفصح عنه الماضي، وما أورثت أوراقه من رؤى وأافكار تناسلت وتسربت إلى حاضرنا مناهج ومؤثرات؛ فلا يعقل قعود محيطنا خائبا، كأنما الدنيا أفسدت عليه، يعتزل، مرتابا، خائفا على ذاته من مضار كائن كثير الأسماء، مقامه دار غريبة تلف المعمورة، يشار إليه بالعولمة (مرادف إمبريالية يؤخذ الناس بجريرتها)، أو الاستكبار، وحتى الجاهلية، تبعا للرائج من مفردات. ولئن امتطت كل مدرسة جوادها، سنعمل على إظهار التقاطع والمشتركات بين شمولي انتحل صفة القومي الغيور وبين مسافر ماضوي نسيب مهدوي ما غادر محطة الانتظار. هؤلاء، كل من موقعه وحاضنته الفكرية، عصب منظومة تدعي الرسالة وتحاكي الأمة بغلاف عربي (روحه الإسلام وفق شروحات ميشال عفلق،

مؤسس البعث) أو إسلامي خالص (مرتكزه مذهبي). وفي الحالين ترفض الاعتراف بالكيانات الدولتية كمحددات وتعتبرها مواقع ظرفية زائلة، بل عقبات أمام وحدة هيولية وعافية جسد مزقه الاستعمار، وما زال يعمل على إطالة محنته وتقطيع أوصاله، منتهكا القيم والمقدسات.

تبعا للتسلسل الزمني (الكرونولوجيا)، يحيلنا الجدول إلى أسبقية جماعة الإخوان المسلمين في نشر الدعوة وشق الطريق مع حسن البنا، المؤسس الذي طهر مسودة ثلاثي الأفغاني/عبده/رشيد رضا على نحو جدلي. سوى أن الحركة القومية تسلقت سلم السلطة ووسمت جمهوريات بمنهجها، محركها الأساس خلايا الضباط من البورجوازية الصغيرة، العاملين في المؤسسة العسكرية، سواء تلك الخارجة من تشكيلات ثورة مسلحة كالجزائر، أم الناقمة جراء خطيئة أصلية

منسوبة إلى الطبقة السياسية (سوريا، مصر)، أو تلك الحاقدة على أنظمة ملكية مترهلة (اليمن وليبيا) وسائرة في ركاب الأحلاف الأجنبية (العراق).
لاحقا، سوف تطاول النزعة الانقلابية السودان وتونس البورقيبية، إلى محاولات فاشلة، أجهضت في المهد(لبنان، الأردن، المغرب). وحيث رفعت الانقلابات لواء التحرر الوطني، تغدق الوعود وتكثر من شعارية معادية للتدخل الأجنبي ولهجماته التي لا تنتهي فصولا، بان فشلها في إنجاز الأهداف المعلنة، وانعطاف معظمها عن المبادىء المدنية بغية توسيع دائرة مؤيديه. فما كان للصحوة الدينية إلا حراثة حقل خصبته بذورها، لها مجالس الذكر والجمعيات الأهلية ودور العبادة منصات، وترقب موسم الحصاد الآتي بالمردود الشعبي. العبرة في توسع

رقعة الإحيائي الديني كلما أمعن نظام سياسي ناهض التبعية في تغييب المشاركة الديمقراطية ورسخ معالم الشمولية، منقطعا عن الحيز الاجتماعي المهمش، حيث الهروب إلى الغيبي والتعويذات. فالارتداد عن جادة المعاصرة في المعنى المفهمي الحقوقي واحترام الفرد، هو السبيل الأقصر إلى الردة، بلباسها الخلاصي المتفلت من الضوابط، وجهان لعملة واحدة في إطار تخلف البنى والكبت.

للدلالة على تمدد الأصولية في متون الأنظمة الشعبوية، ليس أبلغ من الإيقونوغرافيا التقدمية"، وما عبرت عنه من تشابه بين أبطالها الأحياء ورموز تاريخية مثابة القدوة والمثال. فالملاحظ انتقاء كوكبة من المجاهدين العظماء، أهل عزم أبلوا في المعارك والفتوحات، واستبعاد أهل الرأي، لآلىء الحضارة العربية الإسلامية

وعمدة إشعاعها. فلا تمثل بهؤلاء، ولا استحضار لمشرع في تشييد البناء، إذ لم تسجل لهم مآثر ميدانية وبطولات، نظير خالد بن الوليد وطارق ابن زياد وصلاح الدين وعبد الكريم وعمر المختار. وما العودة إلى حكايات الإقدام والنصر، إلا تذكير بحميتهم وعمق إيمانهم وصلابة إرادتهم، مرفق بصورة دونية عن الأعداء. ملحمية مستعارة يراد منها أسطرة واقع مرير قاصر، فهمها الدعاة الأصوليون قطعا من متحفهم، وعلامة على سجله الناصع البياض.

فبينما اتجه الفكر الحداثي نحو قراءة التاريخ بقدر من النزاهة، وتخلى عن النظرة الأحادية المجحفة وعن براءة الغرب من نزعة السيطرة والقهر، بل مارس النقد الجذري ودان الاستغلال الطبقي والقومي بكل أشكاله في أدبيات المدرسة الاشتراكية، فقد استبدل الرواية بالملحمة،

والاجتماع البشري بالملوك والنبلاء، وسلخ عن الكنسي العلم والنهي. بذلك فهو يجتهد لتنقية الذاكرة الجمعية من محمولها الخرافي وعبء مسلمات دهرية سكنت الحافظة وزينت مضامين الوقائع ودوافع القائمين بها من أهل الدار. الأهم ذلك التحرر من مركب العظمة المؤدي إلى العيش في الأوهام والى استحضار الأمجاد الغابرة بديلا من العمل الجاد. على ضفة مقابلة، نصبت الجماعة القومية، الجمهورية التقدمية، مضاربها، تستفيض في مديح الأجداد، وتهلل للسير على خطاهم بعهد الاستمرارية واستلهام الصلاح على غرارهم ومن منهلهم الذي لا ينضب. في الملموس، لم يكن أمر مشاريعها وقفا على رافعة التراث، إنما اقتفت أيضا تجارب تغييرية من خارج النسق القومي، لكن إغراء التمايز والأصالة دفعها دوما

إلى تبني مرجع قياس من لون سيوف الدفاع عن الهوية الأبدية الذين اقترنت سيرتهم بالجهاد، وصورت انتصاراتهم منحة من السماء. وعليه، يجاب على نمو الأصولية الدينية بوفرة شروطها وأسبابها في باطن الحاضنة الاجتماعية، ومن لهث أنظمة، مدنية في الظاهر، وراء مشروعية ملتبسة تمثلت باستعارة مآثر المجاهدين، وتماثل الغايات مع الغيرة على الموروث والأسبقين. إزاء رسم الشخصية بهذه التقاسيم، انبرت الحركات الأصولية تقول إنها الخلف الأجدر، الأمين بامتياز والقادر على تجسيد رسالة السلف.

خبا التيار الديني المحافظ في فترات العافية، الخلافية الإمبراطورية ومن ثم الوطنية، وبقي ملاذا للمحبطين والخائفين من تسرب المفاسد والبدع إلى المجتمع الإسلامي. ولا يمكن، بأي حال، اعتباره عارضا أو طفيليا،

سهل اقتلاعه، كون العصر الذهبي لم يدم طويلا، وفي نظر
القوم أن التاريخ جار على المؤمنين، يمضي مبتعدا عن سيرة
الصالحين لدى السنة، ومطيلا غيبة المهدي صاحب الزمان،
الوحيد الذي يملأ الأرض عدلا لدى الشيعة الإماميين.
بانتظام، برزت تلك الضغينة وجودية مقلوبة تعني الجماعة
لا الفرد، أضعفها فتح من هنا، وألق بغدادي عباسي أو
دمشقي أموي تارة وأندلسي طورا من هناك، فيما لم تتوقف
الأقلية الشيعية عن إقامة مجالس العزاء والبكاء على
الفاجعة التي حلت بها في كربلاء، (أسقطت الخمينية
الشاهانية وذكراها من الساسانيين إلى الصفويين وبهلوي،
لنختصر التاريخ بالمأساة). ولقد استوجبت دورة التاريخ ألف
عام من التبعية والاستتباع، قطعتهما الدولة الفاطمية مسافة
قرن

وانتفاضات في الأطراف، اشتعلت وخمدت، قبل حيازة المذهب الشيعي دولته الصفوية في بلاد فارس (وأذربيجان الملحقة) وصراعها المكشوف مع الخلافة العثمانية. لكن الإمبراطورية العربية/ الإسلامية، من حيث كيانيتها وتعبيراتها الحضارية وأمجادها، وبالتالي نهوضها بمفهوم الأمة واستوائها معلما لفضاء ثقافي، تاريخي يحتضن هوية مميزة طموحة ومنافحة بين الأمم، انتسبت في المحسوس المعترف به وحيدا على مذهب ولسان أهل السنة الأكثريين. فلا غرو أنها استجابت للرسالية، وأعطتها زخما تاريخيا وأداة نظامية فاعلة أثمرت تكاوين مجتمعية وسلوكيات، عين على الأجنبي في دار الحرب تقاتله وتخيره بين الدخول في الإسلام أو الاستئمان، وعين على الشعوبي في حياضها تخشى على جسد الأمة من الفتنة النائمة.

نزاع قديم من صدر الاسلام أبحر في الأجيال المتعاقبة، يشحن
نفوس أبناء فرقة وفية لإمامها الأول، أبعد جراءه أهل البيت
عن دائرة السلطة بالخداع وقوة السيف على ما روى منقول
أتباعهم. ومظلومية تعانق إسكاتولوجيا الشهادة، ملؤها
الشعور بالحرمان المعنوي (والمادي الحاصل، العائد لبقاء
شيعة علي على الهامش، وإسقاط المذهب الجعفري من
عداد المذاهب المعترف بها)، لم يشفها تحول الشاه الصفوي
واعتناق رعاياه الفرس المنهج الشيعي.
عاش الشيعة في انتظار المهدي، يرفض علماؤهم ومجتهدوهم
الإقرار بمشروعية السلطة في غيابه، إلى أن قطع روح اللـه
الخميني مع الاجتهاد السائد عبر ولاية الفقيه، وأعلن
استجابة الجمهورية الإسلامية للإرادة الإلهية فاتحة عهد

يقوى فيه ساعد المستضعفين، ويضع خاتمة للاستكبار.
أسقطت الثورة الإسلامية في إيران نظام الشاه ليبدأ فصل جديد، أحكم فيه الملالي السيطرة على مفاصل الدولة ومرافقها إثر اندلاع حرب طويلة مضنية مع العراق خلفت مئات ألوف الضحايا لدى الجانبين وأخمدوا المعارضة المدنية واليسارية. غير أن الثورة، في المفهوم الخميني، عملية تتعدى حدود إيران، عليها واجب رسالة شاملة تستنهض المسلمين كافة وتحثهم على الجهاد. بذلك، تكاملت حلقاتها في الخارج حيثما وجدت تعاطفا مذهبيا، أو تأييدا لدعوتها في محاربة الشيطان، في الوقت الذي بدأت حركة التحرر في الانهيار، وافتقدت الغالبية السنية مشروعا موازيا وأرضا صلبة نظير إيران. ولئن تقاطر المجاهدون إلى أفغانستان الوعرة،

لمقاومة الشيوعيين الملحدين، فقد اختاروا أرضا بعيدة ذات مجتمع قبلي، ومنطلقا يفي بحاجات النصرة كقاعدة لقادم جهادية أصولية الطابع، فصائلية الغلاف.
ما من شك أن الغرب ساهم في رعاية تعضيد المشروع الحركي الإسلامي بجناحيه، الشيعي والسني، فأطلق ماردا من القمقم، ما لبث أن ارتد عليه. كان حصاده مرا نتيجة الاستثمار الديني خلال الحرب الباردة وحسابات ظرفية خاطئة أعمت بصيرته في مجرى الصراع مع السوفيات. هكذا اجتمع حلفاء الأمس السنة، ومن ظن الغرب أنه بديل إصلاحي عن الشاه (حلقة آية اللـه الخميني)، على كراهية السند، وباتوا يتبارون لكسر شوكته وإخراجه مهزوما من دار الإسلام. وإذ قيض للخمينية أن تقود دولة وازنة في الإقليم، نفطية صاحبة تاريخ إمبراطوري

عظيم، إتكأت قاعدة بن لادن على مؤسسة طالبان القروسطية المتشددة، تتخفى قيادتها في معاقل البشتون وتنشر خلاياها عبر القارات، لتشاغل عدوها بالقنابل البشرية والنشاطات الإرهابية المروعة، وتقذف المتهاونين بالردة والتكفير. فكما جبت الثورة الإسلامية في ايران المحددات المدنية والفذلكة النظرية لأمثال مهدي بازركان من مدرسة مصدق وعلي شريعتي، تجاوزت الحركات الجهادية السنية، الخارجة في الغالب من رحم الإخوان المسلمين، مسلك الدعوة إلى معاقبة المتخاذلين ومواجهة أعداء إماراتها، مسلمين منحرفين فقهيا ومدنيا، ويهودا ونصارى، بالحديد والنار.

***

الظواهر الاجتماعية بنات إشكاليات، تستمد قوة الدفع
والزخم من طاقة الأمم، وتنمو بقدر تعاظمها وانعكاسها في
الواقع الملموس. وإن تزودت الظاهرة بمسند، فعليها بلورة
المراد، وذلك تكليف صعب، دونه المسافة بين الشعور بالألم
وتوفير العلاج. فإذا جاءت اعتراضية، ثائرة على القوالب
المحافظة والجمود، تموضعت في دائرة التغيير، وحيث
تسربلت بالمحرمات والذات الأبدية، خاصمت التحولات،
غاضبة على الزمن الرديء.
تختصر النزعة الأصولية الدينية التاريخ، منطوقه الصراع
المحتوم، المكبل بالمفاضلة بين الخير والشر، متسمر عند
واقعة بعينها، مؤسسة ومحددة صيرورة البشرية جمعاء.
فكل ما عداها منسوخ فاقد المعنى، وبالتالي باطل عديم

المشروعية والقيمية، مخالف للشريعة الإلهية، واجب الاندثار.

يلتقي الأصوليون جميعا حول أولوية المنزل بنهائيته ومرجعيته التي تعلو كل اعتبار، ويتمايزون إزاء السبل الآيلة إلى تحقيق الغاية الأسمى على الأرض، وفقا للزماني أي تبدل الأحوال. وأقصى ما يبلغه المعتدلون من قماشة رائد الغنوشي (حركة النهضة الاسلامية التونسية) والدكتور حسن الترابي (السودان) والدكتور محمد سليم العوا (مصر) والسيد محمد حسين فضل اللـه (لبنان)، وحتى حسن البنا (مؤسس جمعية الإخوان المسلمين)، القائلين بتبني الديمقراطية، يتعلق بممارسة السلطة ضمن حدود الشريعة والشورى، لأن السيادة الإنسانية محدودة مشروطة وتناط السيادة النهائية فقط بالله. في المقابل، تجمع المدارس الأصولية، بلا استثناء، على اتباع

السياسة بالدين كون ذلك ضمان الانتصار على ما بينته الشواهد التاريخية، فعندما فصلت السياسة عن الدين الصحيح، فقد المسلمون الحماسة الدينية، وفقدوا معها الروح والفعل (لعدم كفاية التمسك بالطقوس)، فتوقف الفتح وأضحوا هم الخاسرين. أما الموقف من الحضارة الغربية، فينطلق من عيوب الفكر اليوناني (المادة والمتعة والرخاوة الأخلاقية)، وفشله في تجربة خصائص اللـه عن المادية، يكرس الأصنام في المعابد وينسى العامل الروحي (سيد قطب). بدوره، التفت أبو الحسن الندوي إلى التراث الروماني، المكون الثاني للحضارة الغربية، فوجده قائما على القوة مضافة إلى مادية جامحة اعتنت بالسياسة وأهملت الآلهة، فسقطت روما من كثرة الترف والانحطاط الأخلاقي. هكذا، يتحتم القطع مع الحضارة الغربية الزائفة، وكل طرق فلسفة

مصدرها العقل الإنساني الذي يبارك الجزئيات، بخلاف
العقيدة القائمة على الوحي، والموصلة إلى الوعي بالكون
والآخرة. وقد أدى تدخل الجاهلية والمادية في اليهودية
والمسيحية إلى حرفهما عن الأصل الإلهي المشترك، وزوال
مصداقية الديانتين بانتصار المادة على الروح عند أتباعهما.
على هذه المقدمات والتفاسير، أحكمت الأصولية إغلاق باب
التواصل المفهمي، توطئة لاشتباكها الشامل مع مضامين
الحداثة، ورفضها القاطع للنماذج الاجتماعية والسياسية
المنبثقة من فضاءات تمنع توحد الإنسان مع الخالق،
والخضوع لقواعد الصلاح والكمال التي حملتها الرسالة، شأن
المانوية والهندوسية والبوذية، التي أبت العمل بشريعة
منزلة واختارت الركون إلى المخلوق. المسألة ليست القبول
بالتنوع وحوار

الحضارات، بل الدفاع عن المعتقد الصحيح وعن الربوبية في مواجهة الضالين، وهي في المبدأ وديعة لا يجوز التفريط بها، والتهاون حيالها، لانعدام وجه المقارنة بين التعاليم الإلهية وصناعة البشر الفكرية، تحت أي مسمى ومطلق ظرف. فأقصى المتاح، حسب الأدبيات اللينة، التكيف مع التعددية في بلد ما، عملا بديمقراطية نابعة من مبدأ الشورى. لكن هذه الواقعية لا تمس جوهر المنهج، فالإسلام هو الحل الأول والأخير، إنما تتخلى عن تفسير حرفي للحاكمية ينزع جدوى التدبير البشري ويلغي الوسائط المشروعة الممكنة من بلوغ الغايات، دون انتقاص من مرجعية الشريعة الناظمة، منشأ الحقوق والواجبات. عبر هكذا فصل فقهي بين السلطة وتنفيذ الأحكام، ينتفي الإكراه وتزداد الحاجة إلى الدعوة والالتزام بالمبادىء

والسلوكيات، بينما خيار المتشددين الهجرة عن المجتمع الجاهلي وتكفير الناس.

إن بناء السياسة وكامل القواعد الاجتماعية على أساس ديني محض بهدف إعلاء كلمة الـلـه، يؤول إلى هداية البشرية جمعاء، حيث إصابة غير المنتمي إلى الأمة بعاهة متأصلة تمنع إرتقاءه وتعمي بصيرته. الأدهى أن أمره يتفاقم وما حاصل المسار خارج الإسلام إلا إمعان في التسلط واحتقار المعاني السامية وسقوط في الخطيئة، خاصة وقد انتقلت عدوى مفاسده إلى دار الإسلام، وشوهت حكوماته التي عليها إعمال المبدأ الشرعي في كل مجال لاكتساب الصفة الإسلامية الحقة. عند هذه المقاربة، من واجب الوفي الصادق تخليص العالم من كتلة المساوىء والشرور، بدءا بالعفن المجتمعي وانتهاء بالانحطاط الثقافي والمعنوي، بيد أن

العلاج الداخلي قد يتأتى من التنشئة الصالحة والحسبة ونقد الاعوجاج في متن السياسة والحكم، كما يقول الإخوان المسلمون، أم بالتصدي للجاهلية وإنزال الحد بالطغاة (الجماعات الجهادية)، لكن السكوت عن الأجنبي الظالم تواطؤ وخيانة للمبادىء في مطلق الحال، ما يستدعي دفع ضرره وطرده من أرض المسلمين، والنفاذ إلى عقر داره عل يهتز سلطانه وتخور قواه. وحينما يشار إلى الخطر المحدق بالهوية والاعتداء الشرس على القيم، يحضر العنف تلقائيا في سياق المواجهة، ويمارس باختلاف الدرجات.

لا يمكن إخفاء أثر الإشكاليات الدينية في ما مضى، تماما كما يستحيل رد المأزق الحاضر إلى صراع حضاري مستعر يحركه الاصطفاف الديني من كل صوب. حققت البشرية قفزة نوعية

منذ العصر الحديث، وهي لا تبرأ من صفحات سوداء، ليس أقلها الاستعمار وحروبه وضحاياه، مردها سياسات متنابذة قوامها المصالح والجنوح القومي والعنصري، فجرت تناقضات بينية أدخلت مختلف الأطراف في أحلاف متصارعة تجاهلت المشترك الديني كعامل موحد ضابط يمنع الشقاق. ينسحب هذا الشكل على النزاعات الإقليمية حيثما وجدت، من أميركا اللاتينية إلى شرق آسيا، وما عاد العالم تسيره الفتاوى والدعوات الصادرة عن مراجع روحية، تفصل بين الأمم، وتسبغ المشروعية على أعمال الدول والأقوام. هناك راهنا عورات بائنة في مسلك الأنظمة الديمقراطية تستدعي نقد مظاهر التفاوت وغياب المساواة كونيا واجتماعيا، يقابلها كم من الانجازات في مجالات المعارف والحقوق الأساسية والتلاقح وتعبيرات الإخاء، وهي جميعا

صناعة بشرية عريضة أبعد من السياسات، تعني المواطن وترسم معالم ثقافته المؤهلة للتفاعل مع الآخر، وانتشال الجامع الإنساني من مستنقع الصراعات. وعلى هذه المعطيات تعتمد معايير النزاهة الأدبية، عوض الأبلسة والدخول في غيبوبة فكرية بائسة، يعهد للخروج منها إلى المشعوذين وقراء الغيب في صحراء معرفية تشتبه عليها طبيعة الإشكاليات، وترتاح إلى وصفات سحرية يستفحل الداء من مفاعيلها.

منذ أواسط سبعينات القرن المنصرم، أي لثلاثة عقود ونيف خلت توازي ما يقارب الجيلين، دخل الفضاء العربي والإسلامي الأوسع من كشمير إلى نيجيريا، مرحلة قاسية أنبتت إرهابا معولما خلصت فيه تنظيمات مقاتلة تكفيرية نسبت إليها الغربة عن جسد الأمة وتقاليده السمحة. واقعا، كشفت استطلاعات الرأي (على

علاتها ومقدار التزامها المهنية الموضوعية) تجاوبا ملموسا
مع نهجها وترحيبا بعملياتها، فاق الطمأنة الرسمية الملائكية
بكثير. استخدمت القاعدة (وسائر شقيقاتها) الرسائل
الصوتية والمرئية بنجاح، تعاونها أقنية فضائية ومواقع
إلكترونية بالعشرات، وجهز الحرس الثوري الإيراني وسائل بث
مباشر وإرسال وضعت في خدمة فروعه وامتداداته، إذ أيقن
الجهاديون أهمية الإعلام، واقتنوا توظيف مبتكرات عدوهم
الأكبر في المعركة الدائرة ضده وباسم رافضي ثقافته
ومنتجاتها.

ولا يعوز الفاحص كبير عناء لمعانيه مدى تفشي مظاهر
التشدد في الملبس والمشرب والفصل الجنسي والموقف من
التحرر النسوي، أي أوجه المحافظة الاجتماعية بعامة، قياسا

بمشهدية في حقبة سابقة. كأنما الاسلام لم يكن حاضرا
حينذاك، وتم اكتشاف قواعد مسلكية جهل بها الآباء
والأمهات، وخالفوا أصول الدين، فأتت الصحوة تنقذ الأجيال
الطالعة من الفسق والانحلال الأخلاقي. ولمن عرف الاختلاط
المديني والتسامح الريفي قبل ذاك، كما لقائل بالانفتاح
اليوم، يصله الجواب صادما، دليلا على تبدل اللوحة
الاجتماعية، وعلى التزمت النمطي الذي جلبته الحركات
الأصولية إلى الواجهة، فكان حليفا حفز السلفية الجهادية،
ومهد لانتشار أفكارها ونفوذها. وها هي محط أنظار شرائح
معبأة سلفا ومشحونة فيهزج أنصارها علانية، ويسعفها
المحبذون بالأسانيد والتبريرات، أما القيادات ومهندسو
غزواتها وعملياتها، فهم على يقين من ضعف رد

الفعل المضاد في بيئة رخوة، طالما استجاروا بالواجب الشرعي
والحمية، واستحلفوا أمة الصابرين على محاذرة القنوط
ورفض الاستسلام.

***

لم تفلح الرسالات السماوية في منع اعتلاء سدة الحكم عنوة،
أم ادعاء العمل بموجب الحق الإلهي سبيلا إلى الحفاظ عليها
عبر العصور، وإبعاد المنافسين من بني الجلدة والخواص.
المسألة أبعد من مبلغ الزهد وتهذيب النفس، فطبائع
الاستبداد ما برحت فاعلة، تلتف على التعاليم السمحة،
وتسوغ لقيصر امتلاك السلطة وحيدا إن أفلت من الرقابة
والمأسسة الدستورية المحتكمة إلى أصول ميثاقية منبتها
الإرادة المجتمعية الحرة على أوسع نطاق. في البدء،

عبد طليعيون الطريق بأفكارهم وأبحاثهم المقارنة، من هوبس وكانط إلى مونتيسكيو، وراكمت التجارب خلاصات جوهرية أضحت مبادىء مشتركة تصون النصاب. غير أن التحول العميق تحقق مع اتساع مساحة الرأي العام، وتأبط القوى الحية عملية التغيير والتحديث في المشاغل والمحافل السياسية العامرة بنظم العدالة والمساواة.

أن تكون المبادىء الديمقراطية الحديثة وليدة التنوير والتطور المعرفي، فذلك يمنح واضعيها الريادة والإشعاع، دون الملكية الوراثية وحصرية الانتفاع. فحيث لا هوية قومية لها، اكتسبت طابع الشمولية، يلائم البشرية جمعاء، وتغنيه الثقافات.

من أقصى الشرق، ثمة مثال جدير بمعاينة العين العربية، نقل شعبا عظم شأن تقاليد دهرية، إلى طليعة الأمم. حافظ اليابانيون على معتقدهم

وطقوس الشنتوية، وعلى ثقافة مميزة فخورة بقيمها ومعاييرها، لكنهم تخلوا عن أمراء الحرب (1877)، وجعلوا من الساموراي صورة عن الشهامة والوفاء لا نخبة حملة السيوف، ومن قداسة الإمبراطور الألوهية أبوة وقدوة للأمة، لها جزيل الاحترام.

يشهد تاريخ اليابان الحديث على عمق التحولات التي استوجبت مخاضا وتدابير جذرية كسرت محرمات شتى، واصطدمت بعناد القوى المحافظة لغاية منتصف القرن العشرين. فبعد تمهيد عرف بمرحلة الأيدو جاء عصر "الميجي الإصلاحي" (برنامج العهد الجديد 1879)، ليضع لبنات التحديث الشامل، الدستوري والصناعي والعسكري، (1885، تشكيل أول وزارة وإصدار أول دستور عام 1889)، وينهي عزلة أرخبيل تحوطه البحار. انتصر الأسطول

الياباني على روسيا القيصرية عام 1905، إيذانا بصعود دولة عظمى في شرق آسيا، طغت عليها النزعة التوسعية وأوصلتها إلى بيرل هاربور (نكسة الولايات المتحدة في هاواي عام 1941) بعد فرض الحماية على مانشوريا وكوريا وإذلال الصين و استعباد الشعوب الموصوفة بالدونية.
سيطرت الطغمة العسكرية على مقاليد السلطة، قومية متعصبة مارست الهيمنة على بلدان تابعة، مستخدمة فائض القوة لأغراض إمبريالية محضة، أدت إلى اندحار اليابان في النهاية، وإشراف ماك آرثر باسم الاحتلال الأميركي على إصلاحات دستورية ديمقراطية في سابقة تاريخية لا مثيل لها. مذذاك، اعتنقت اليابان المنهج الديمقراطي، تسترجع سيادتها بخطوات موزونة، إلى أن أضحت قطبا اقتصاديا ينافس الولايات المتحدة ويحتل موقعا متقدما داخل أسرة الدول

الصناعية الأكثر تقدما وإبداعا. وعبر ظروف بالغة التعقيد، غامرت اليابان وأنقذت كرامتها الوطنية، فكسبت الدنيا وما خسرت خاصيتها، أو غيبت ثقافتها وناحت على المفقود.
إن قيامة اليابان من تحت ركام الحرب العالمية الثانية لخير دليل على ما أشاعته الحداثة ووفرت له في صميم المجتمع، بحيث خرج من محنة وطنية قاسية ونهض بعقول أبنائه وسواعدهم الذين استوعبوا المعارف والتقنيات بلا مقيدات ذهنية رافضة.
وحين تملكت العصبية القومية دوائر القرار، كان السقوط المدوي وعقاب المتهورين فاتحة حقبة دستورية أعادت الاعتبار للمهزوم، ومنحته المنعة مجددا، والوئام مع جيرانه، على أمل تصفية كامل ملفات الحرب. تصالح شعب اليابان مع ذاته، مقدمة تفاهمه مع أعدائه السابقين،

وارتضى بالمؤسسات ترسم سياسات مسالمة قادته إلى إرساء الديمقراطية وإزالة العنف من جدول أعماله ومناخاته الفكرية.
من جهتها، لربما أفادتنا أميركا اللاتينية، بما هو أقرب، زمنيا وصيغا، للواقع العربي، حيث توالت الانقلابات العسكرية في معظم دولها: استوعبت القارة الجنوبية دروس الماضي الأليم، وتخلصت من شوفينية بلباس الخلاص الوطني خلفت القمع المنظم واضطهاد المناوئين السياسيين، بالتعاون غالبا مع وكالة الاستخبارات الأميركية والاحتكارات. على وجه عام، سقط ادعاء النزاهة والحرص على الكرامة الوطنية، أمام تفشي الفقر وغياب الحريات. سوى أن التصحيح الجاري حاليا بغلاف ديمقراطي سليم في البرازيل والأرجنتين والشيلي والأوروغواي والباراغواي، على الأخص، يتخذ منحى مختلفا

تماما عن السائد عربيا في المسند المرجعي والانتظام داخل
الأسرة الدولية دون نفور أو ضغينة تتسبب في انشطار
حضاري، بل بتوكيد المآخذ على عطب السياسة الأميركية
طوال عقود والعمل على إرساء علاقات متكافئة.
الانعطاف السياسي في أميركا اللاتينية لا يفسد في التواصل
قضية، نسقه العام انحسار للشعبوية ومزيد من الرشد
الدستوري بجرعات متفاوتة تحد من بؤر التخلف في
الضواحي والأرياف، والمشكلات العالقة جراء التركة
الاستعمارية القديمة حيال الأعراق الهندية الأصلية والملونين.
مرفوعة الهامة، دفنت أفريقيا الجنوبية نظام التمييز
العنصري، ولم تقع فريسة الانتقام من الرجل الأبيض، لأن
المؤتمر الوطني الأفريقي، بزعامة مانديلا ورفاقه، اختار
الصفح عن الجرائم

الماضية ونادى بالوفاق الوطني شرطا لمرحلة جديدة، يسمو
جميع الاعتبارات ويطلق طاقات المجتمع بفئاته كافة. بذلك
أخمدت الدولة المنبعثة من رحم الشقاق، نار الكراهية، على
رجاء بناء دولة عصرية تصبو نحو العدالة، هي اليوم في طور
المعافاة، عنوان الحكمة السياسية والوسيط النزيه في
النزاعات البينية الأفريقية.
ولعل تبدل السلطة وتداولها سلميا في بريتوريا علامة فارقة
يستدل بها لتسوية النزاعات العرقية ومعالجة قضايا الأقليات
برفق ومشاركة عضوية في الشأن العام. بيد أنها أمثولة في
متناول الأحرار قاطبة أين منها نوازع الفرقة والخصام
الضاربة في غير بلد أفريقي، وفي المحيط العربي الحافل
بيافطات عقيمة عارية الصحة، لا تشبع معوزا ولا تستر
عورات.
حيثما جال النظر، يرى مولود القرن

العشرين بلدانا وشعوبا وطبقات عانت وكابدت الظلم والانتهاكات، إنما وجدت، بالكد والكفاح الدؤوب سبيل ولوج الألفية الجديدة المعولمة بقدر من الثقة بالنفس والمكتسبات. فلا أمة متخيلة تسكن وجدانا مريضا لديها وتسوغ لأبطالها العربدة الفكرية ومقيت مفاهيم بالية في مصادرة الشأن العام. ولا اجتهادا انعزاليا تدرب عليه مدارسها، قائما على خرافات الصدارة والأمومة المجيدة النقية من علائق مدنية معاصرة مرتدة على النواميس. تحيط الالتباسات بالأطروحات القومية والإسلامية من كل جانب، لأنها مشوبة بالخفايا، مليئة بالفرضيات الاستنسابية، تفوح رائحة التوابل الخرافية في مطبخها ومن طبقها اليومي. إن نتاج القومية المؤدلجة عروبة قسرية متجسدة في أمة أرادها الإسلام جامعة للأقوام في التقوى. لذلك، فهي

تتجاهل هذا المحدد الركن، وتصطدم بالتعريف العريض
القادم من الموروث، لولبية لا ترضي الحركات الدينية
المتمسكة بالأصول والمصدر، بل تتوخى الالتفاف عليها،
وتفادي جام غضبها وإلقائها الحرم، بالاقتطاف من مضمون
خطابها، ولا غضاضة من روافد دينية تصب في مجرى
العروبة على سالف بيان، بعد أن شح المنسوب النهضوي في
شرايينها، وغلب عليها الارتياب من طابع الأفكار المستوردة
وصنائع ثقافة غريبة عن مشتل الدار الممتدة من موريتانيا
إلى جزر القمر بنعمة لم الشمل المزعوم.
تمتاز الصحوة الإسلامية عن التيار القومي المعلق بين الأرض
والسماء بوضوح النسب وصريح الغايات. ثمرات منظوماتها،
أنها ذات شخصية لا لبس فيها، تخاطب أمة معروفة
التكاوين والحدود، فإذا ضحلت هباتها أم لبت

اليسير من حوائج الدنيا، شكت الهجمة المعادية، وأرجعت مسؤولية الحرمان والشقاء إليها، تستبقي مباهج الآخرة عزاء للصابرين، كونها تمتلك مفاتيح الجنات. هذه التوليفة الغيبية الخالصة تؤهلها كيفيا التمرد على الواقع، واستخراج الشافي من صلب الداء، وهي بذلك معصومة عن الفشل لاتصال مراميها بالشهادة، لا تمنى بهزيمة طالما توكلت وآمنت بالثواب. فمهما اجتمع عليها أهل الشرك والكفر، احتجبت ظرفيا وامتثلت للضرورات، لا تغيب عن وجه الأرض لأن القدير هكذا أراد.

إن عقودا من الشحن السياسي والديني قد تمخضت عن ثقافة بتراء في الفضاء العربي الموصول بالفضاء الإسلامي الأشمل. ثقافة في المعنى المجازي، هي أقرب إلى التعويذات الناطقة منها إلى الوعي، تكبل المنطق العلمي،

وتتحفظ على قانون العلاقة السببية، فيتقدم الجانبي والثانوي على الرابط والعامل الأساس. في محبسها هذا، تعلو أصوات كتل تتقاسم الزوايا، زادها الغلو، وجدت جميعها في القضية الفلسطينية شماعة. كل يعلن أبوته ووصايته على الرسالة، قومي يهتف لفلسطين عربية (من البحر إلى النهر ضمنا أو جهارا)، وحركي ديني يعتبر أرضها وقفا إسلاميا يحرم المساس به أو التفريط بأي شبر منه. إلا أن تعاليم الخمينية الوافدة من إيران، اقتحمت المجال العربي من البوابة الفلسطينية بالذات، علاوة على الحلقة المذهبية المتناغمة معها، وباتت جزءا من المشهد العام، يأكل من الخبز الشرعي بأحسن من أهل الرباط، ويجتذب فريقا من أيتام الجناح القومي إلى مدار طهران، محور المواجهة الجديد، المبشر بدحر الصهاينة واقتلاعهم من الأرض المقدسة.

المحتويات

إنّ نزعة التخلص من ذوي القربى، أتحدَّروا سلالياً وعائلياً أم اتحدوا في الإيمان أو المقاصد الدنيوية، استمرت تؤول إلى تغييب جسدي عبر التاريخ، وتأصلت في فضاءات بعينها، مخاصمة معايير الحداثة وأدواتها، فيما سارت المجتمعات الديمقراطية المعاصرة نحو مزيد من التسامح في فضّ النزاعات والاستهداف، واكتفت بإنفاذ الموت السياسي بديلاً من إراقة الدماء.

نسيم ضاهر، كاتب وباحث جامعي
شارك في إعداد وثائق سياسية مرجعية.
يحمل دبلوم في علم النفس . إجازة في الحقوق.
دكتوراه دولة في الاقتصاد.

صدر له:

. القطاع المصرفي في لبنان . بالفرنسية (أطروحة)
. عن الأحزاب والدولة في لبنان، دار النهار، 2008.
. جيل اليسار، دار الفارابي، 2010.
. دفاتر الحرية، دار الفارابي، 2012.
. له دراسات منشورة في الصحف والمجلات.

ISBN 978-9953-71-753-1

